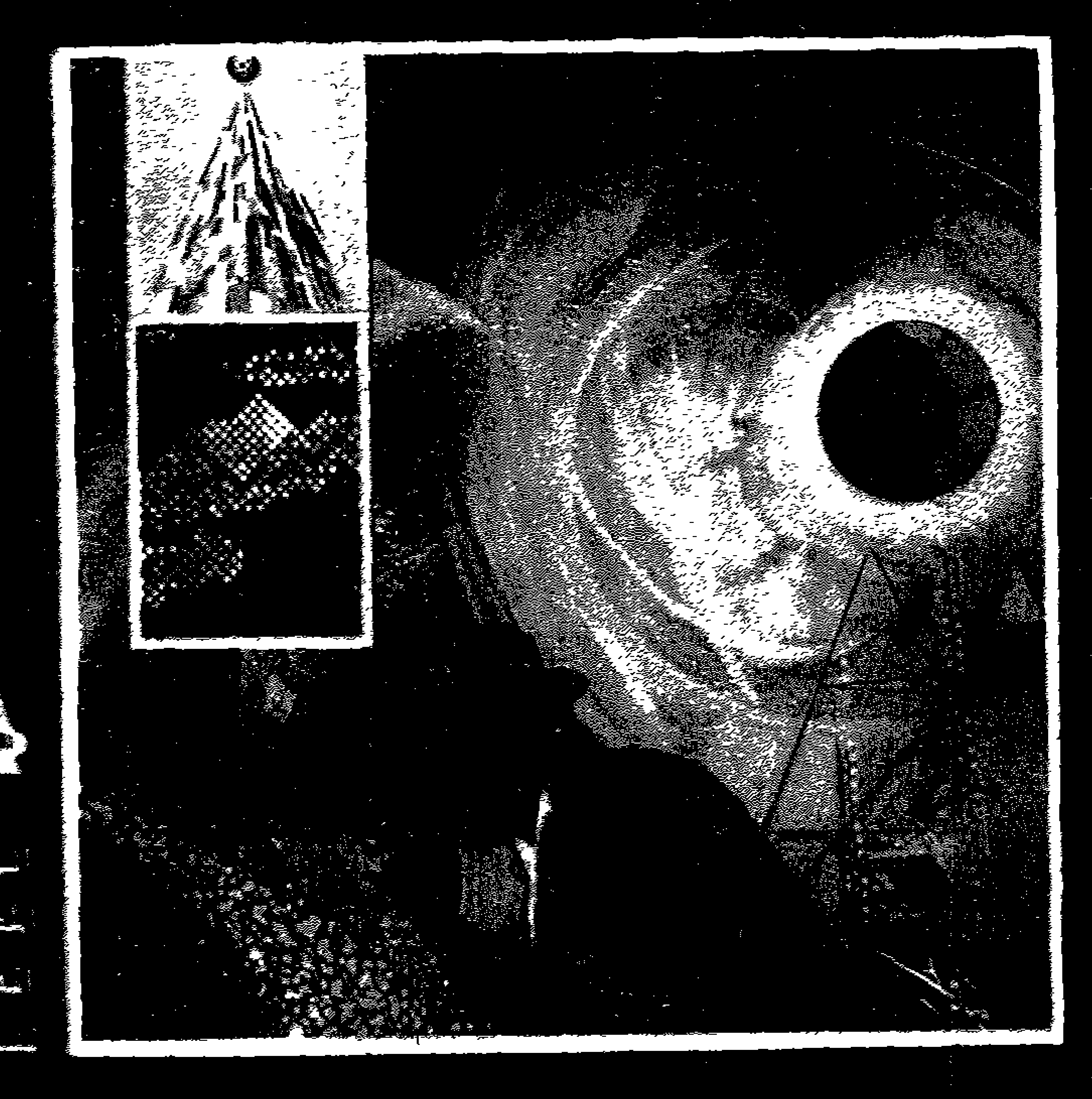
مكتبة الأسرة

التيارات المعاصرة في الثقافة الغربية



د. محمد عناني

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

اهداءات ٢٠٠٣

الفنان / إلهامي حسن

القاهرة

التيارات المعاصرة
فى الثقافة الغربية

التيارات المعاصرة
فى الثقافة الغربية

د. محمد عنانى



مهرجان القراءة للجميع ٩٤

(مكتبة الأسرة)

تراث الإنسانية

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى

محمود الهندى

مراد نسيم

احمد صليحة

المشرف العام

د . سمير سرحان .

التيارات المعاصرة فى الثقافة العربية

د. محمد عنانى

الفصل الأول

المدخـل

ما الذى حدث للعالم الذى نعيش فيه والذى أصبح يغلى كالمرجل تتصاعد منه الأبخرة فى كل مكان ؟ ان أزيز الغليان يصل الى أذاننا من جنوب شرقى آسيا ومن أمريكا اللاتينية ومن أوروبـا ، بينما ترى وميض النار « خـلال الرماد » فى أماكن أخرى وهو يوشك أن يكون له ضرام !
ان التحولات الهائلة التى شهدتهـا بداية التسعينيات قد غيرت من صورة العالم السياسية (والاقتصادية) وبدأت تؤثر فى الثقافة العالمية المعاصرة تأثيرات منوعة ، تتسم بالتناقض والسرعة اللاهثة ، وتتطلب من الدراس أن يضع يده على الأسس الثابتة أولا لهذه الثقافـة التى أصبحت تواجهنا بها أجهزة الاعلام العالمية ليل نهار ، وهى أسس ذات جذور فى ثقافة القرن العشرين الذى يوشك أن يطوى صفحتـه ، ومن ثم فـلا يمكن لدارس الأدب أو الفنون أو الفكرة ـ مطلقـا كان أم نسبيا ـ أن يلم بما حـدث

وما يحدث (ناهيك باستيعابه) دون التعرف على هذه الجذور ومن ثم أدرك أصول التيارات الثقافية التى تتحول يوماً بعد يوم .

وأول ما يلمحه المرء فى هذه الساحة هو التناقض الشديد بين ما يبدو من « صغر العالم » أو انكماشه بسبب التقدم الهائل فى وسائل المواصلات والاتصالات ، والتقدم المذهل فى قدرة أجهزة الاعلام على ربط أجزائه بعضها بالبعض ، وبين احساس الفرد فى العالم المتقدم بالعزلة أو الوحشية (الوحدة) لعدة أسباب نذكر منها أولا عجزه عن التواصل الحميم مع غيره من البشر لافتقاره الى الايقاع الهادىء الذى يمكنه من ذلك ، وثانيا فقدانه معنى الحياة الذى كان يستمده فى الماضى من الارتباط بقوى الروح وعالم المعنى (الدين) ، وثالثا حيرته بين المذاهب التى من المحال أن توفر له اليقين ، فهى من وضع الانسان وكل منها نسبى موقوت مرتبط بالظروف التى ولدته وقد يثبت خطأه بعد أن كان يتمتع برسوخ يرتفع به الى مصاف العقيدة ، مثلما حدث للاشتراكية فى أوربا .

لقد أصبح الفرد فى الأدب الحديث وخارجه ـ ذلك الفرد الذى كان مركز الكون فى عصر النهضة ، سيد الكائنات وخليفة الله فى الأرض ، كائناً ضعيفاً محدود الطاقات ، وهو قطعا عاجز عن مجالدة القوى الاجتماعية والاقتصادية الجبارة التى يجدها جاثمة فوق صدره دون

رحمة فيحس بضعفه وبتأخره على سلم الموجودات ، وقد يستسلم لهذا القدر والمصير وينجرف فى التيار ، أو يعارضه ويناوئه فينهزم ويسقط ، بل وقد يكفر بالعلم والمدنية ويرمى نفسه فى أحضان القوى المضادة ـ فيتحول هو نفسه الى طاقة مدمرة فى المجتمع •

والفرد الذى يفقد منابع ريه الروحانى يفتح الباب أمام الحيوان الجاثم فى أعماقه والذى هو وراء هذه الطاقة المدمرة التى تتخذ أولا صورة الانحلال الفكرى أى انعدام القيم ، والثورة على كل ما من شأنه تقييد حريته الحيوانية • فالشباب الذى أوتى كل شىء فى بعض الدول المنعمة ـ من المأكل والملبس والمأوى والعلاج الى مظاهر الترف والبذخ ما يزال يتساءل لماذا يعيش ـ فهو اما يبحث عن مصادر جديدة للذة (فيسلك طريق الشذوذ) وقد يفضل الغياب عن الوعى فيتعاطى المخدرات ، أو ينتحر ، أو ـ على النقيض من كل ذلك ـ ينضم لجماعة دينية تدين المجتمع لانحلاله وفساده بينما يتصور هو أنه مرسل من عند الله لاصلاح هذا الكون وهداية البشرية بالقوة ! ومن ثم تكاثرت الجماعات الدينية التى تستند الى احدى تفسيرات آية أو آيات من أسفار العهد القديم (الكتاب المقدس) وطفقت تقيم المذاهب التى ينجذب اليها الشباب ، وصرنا نسمع من وقت لآخر أخبار تبادل اطلاق النار وسقوط القتلى أو الانتحار الجماعى لأفراد طائفة من الطوائف •

وقد يهرب الفرد من كل ذلك ـ مدفوعا بنفس القوى الفكرية التي وصفتها بالقوى الثقافيـة ـ الى المال ينشد فيه القوة وتحقيق الذات ، ومن ثم وجدنا تيـار تقديس المال والانشـغال المخموم بما يسـمى بالنمو والتنميـة الاقتصادية (وهما مفهومان مختلفـان) سعياً وراء معبود جديد هو مستوى المعيشة ، ومحاولة رفعه بأي شكل من الأشكال حتى ولو كان مرتفعا الى أقصى حد بمقاييسنا نحن في الدول النامية ! وأيضـا هنا نجد من ينبذ المال تماماً ليس زهداً في الدنيا وطلباً للآخرة ولكن هرباً من ضغط الحياة التي يقاس فيها كل شيء بالمال فهو يسعى نحو شيء لا يشترى ولا يباع ، وهو يعرف أنه سوف يحقق ذاته اذا حققه ألا وهو العلاقة مع الجنس الآخر التي تتخذ في بعض الأعمال الأدبية صور الرومانسية المتطرفة ! والغريب أن هذه الفئـة من الناس (ومعظمهـم من النساء) لا يحققن ذواتهن في الحياة الواقعية المادية بل في خيالات المؤلفين من كبار الروائيين الذين اكتشفوا هذا المدخل الى قلوب أبناء وبنـات القرن العشرين ! ولذلك تجد أن الانحـلال الجنسي أيضا تقابله رومانسية مفرطـة واستغراق في خيالات الشعراء والأدباء ، بل ان ظهور البلاء الجديد أي مرض نقص المناعة المكتسب (الإيدز) قد شجع الكثيرين على الهرب من ممارسة الجنس بالصورة التقليدية واستحداث صور جديدة ، فوجدنا من يكتب رواية كاملة تتكون من

أحاديث تليفونية بين رجل وامرأة لم ير أحدهما الآخر ، وهما يصلان الى ذروة علاقتهما فى آخر المحادثة ثم يضعان السماعة ولا يلتقى أحدهما بالآخر أبدا ٠

والى جانب الصور الجديدة من هذه الرومانسية المفرطة ، وجدنا ازدهار لون جديد من المسرح لم يكن له وجود يذكر فى الستنيات هو الكوميديا الموسيقية اذ تسابق المخرجون والمؤلفون الى تقديم التسرية الى جمهور يعانى من عذاب الوحشة والعزلة ويريد أن يحس بالانتماء ولو الى جمهور صاخب يصفق ويردد مقاطع الأغانى مع المطربين والممثلين ٠

ولم تنج من هذه الضغوط الفئات الاجتماعية التى شعرت بأنها مطحونة مثل الأقليات (وخصوصا الملونين فى أمريكا) ثم انتقلت الشكوى وانتقل الضجيج الى الحركة النسائية الجديدة التى اكتسبت أبعاداً أدبية وفلسفية ٠ وغدت حركة أكاديمية غير مقصورة على المطالبة بتحرير المرأة أو بالمساواة الكاملة مع الرجل وما الى ذلك ـ ولكنها أصبحت تتضمن المطالبة باعادة كتابة التاريخ من وجهة نظر المرأة ، ووضع قانون نسائى ، وما الى ذلك من مطالب لم تجد استجابة سريعة من جميع الفئات ـ ومنها كثيرات من النساء ـ فشب صراع غير مسبوق حول « حقوق » المرأة وما الى ذلك من موضوعات ما تزال تشغل بال

المهتمين بدراسة الأدب باعتباره ظاهرة اجتماعيـة وقوة فاعلة فى تشكيل صورة المجتمع الجديد .

والدارس لكل هذه الظواهر والتيارات لابد أن يضع يده على اتجاهات لا يمكن اغفالها فى الفكر الانسانى الذى نعتبره الشريان الذى يغذى ثقافة الانسان فى كل مكان . وأول هذه الاتجاهات هو تقديس العلم الطبيعى الذى ولد فى القرن التاسع عشر ومازال يتشبث به كثيرون ـ وهو العـلم الذى لا يعترف الا بوجـود المحسوسـات ويعتبر المجـردات ضرباً من الفـروض التى تسـتخدم فحسب للمساعدة فى التعامل مع عالم المادة . وفى هذا الصدد نرى التناقض الذى يفسر لنا البلبلة التى نلاحظها فى كل مجال ألا وهى تقديس الآلات الحاسبة التى اخترعها الانسان لتساعده فى تجارب العلوم الطبيعية فاذا بها تستعبده واذا هو ينسى أنها آلات حاسبة أو حواسيب (جمع حاسوب) فهى قادرة على العد والاحصاء واجراء العمليات التى يعلمها اياهـا الانسان فقـط ـ وما أصعب أن تقنـع مسـتخدم الكمبيوتر أنه آلة !

وثانى هذه الاتجاهات هو اختلاط مناهج التفكير بين المطلق الذى يوفره الحاسـوب (وتوفره الأرقام عموما) وبين النسبى الذى هو الحياة الحية ! فالانسان الحديث يطمع فى وضع منهج علمى للعلوم الانسانية لا يوقعه فى الخطأ فيستعير من الحساب أرقامه وأعداده فيخطىء ويخطىء

ويخطيء ! وكم من دارس للأدب وقع فى مثل هذا الضلال بعد اختراع الحاسوب ، ومنذ عامين لا أكثر انتهى عدد من علماء الرياضيات فى جامعة كيمبريدج من تحويل كل أعمال ملتون الشعرية الى لغة الكمبيوتر وانطلقوا يختالون بالنتائج الباهرة التى تصوروا أنهم انتهوا اليها بعد خمس سنوات من الكد والجد ، فرصدوا عدد الكلمات التى تبدأ بحرف الباء ، وعدد العبارات التى تبدأ بالفعل ، وعدد الجمل التى يزيد طولها على عدد محدد من السطور وما الى ذلك ، ونشروا ذلك كله فضحك منهم أساتذة الأدب - فلولا المعلومات التى وفرها لهم هؤلاء الأساتذة ما استطاعوا « احصاء » شيء ، والواقع أن الاحصاءات كانت مفيدة وحسب باعتبارها مؤشرات ولكنها معروفة سلفا ، ولن يتغير الواقع الأدبى كثيرا اذا أحصيت عدد المرات التي استخدم فيها ملتون لفظ آدم أو لفظ الشيطان فى ملحمة **الفردوس المفقود** - فموضوع الملحمة يتناول هذين ، وورد اسم آدم ٣٧٣ مرة مثل وروده ٢٦٧ مرة !

والولع بما يسمى بالمنهج العلمى يؤدى هو الآخر الى اخضاع الأعمال الأدبية لقوانين ونماذج شكلية تبهر القاريء بدقتها واحكام صنعتها ، ومن ثم توحى بالدقة العلمية والبعد عن الخطأ . وهذا هو الدافع الذى جعل لفيفا من كبار النقاد ينشئون ما أسموه المنهج البنائى أو البنيوى والذى يرجع كل عمل فنى الى أشكال محددة سلفا وتتميز

بعدم التفاوت من عمـل الى عمـل • وكذلك فعل أنصار ما يسمى بالتفكيك أى اعتبار أن العمل الفنى عمل غـير نهائى فمعناه يتوقف على القارىء وعلى الواقع الذى ينتسب اليه و « ألوان » اللغـة التى يستخدمهـا وما الى ذلك ، مما أتاح فرصة كبيرة لابـداع النقاد أنفسهم ، خصوصا مع ازدهار تيار التفسير والتاويل الذى خرج بالعمل عن سياق الأدب المكتوب الى شبكات العلاقـات الفلسفية مع غيره من ميادين المعرفة البشرية •

وقد استعنت فى كتابة هـذه المقـالات بالمعلومات المستقاة من الكتب الجديدة والصحف والدوريات المعاصرة ، فى محاولة لربط ما أسميته بجذور ثقافة القرن العشرين بما آل اليه الحال فى الواقع الذى تعكسه الكلمة المكتوبة ، سواء فى الكتاب أو الصحيفة • وربما ساعدتنا النظرية الشاملة أول الأمر على الغوص والتدقيق فيما بعد ثم المقارنة بين ما يحدث فى بلادنا وما يحدث خارجها •

الفصل الثانى

٢ ـ الانسان ومراتب الوجـود :

اشتهر عن الباحثين تعريفهم للنهضة الأوربية بأنها الحركة التى وضعت الانسان لأول مـرة فى مركز الكون أو كما نقول بالتعبير الحديث « فى بؤرة الصورة » بعد أن كان يعيش على هامش الوجود كائنا ضعيفـا (كما أثبت الياد فى كتابه **تاريخ الفكر الدينى**) ومن ثم كان تصور وجود قوى لا قبل له بمجالدتها تتحكم فى مصائره وأحواله تصورا جوهريا ولا غنى له عنه حتى بعد قرون طويلة من نزول الأديان السماوية التى حملته الأمانة وألقت على كاهله أعباء الوعى وما يقتضيه من تحمل المسئولية عن أفعالـه مصيباً كان أم مخطئـا • ومعنى ذلك أن موقعه على سلم الكائنات لم يكن رفيعا ـ أى أن مرتبة وجوده كانت الى حد ما منخفضة •

واذا كان فكر النهضة الأوربية قد غير تماما من هذه التصورات حين وضع الانسان فى مركز الكون باعتباره

سيد الكائنات وخليفة الله فى الأرض ، فهو بذلك يلتقى مع ما يسمونه « التنوير » فى الفكر الأوربى أى معارضة التراث الدينى المتحجر للكنيسة والذى لا يمكن اعتباره تراثا منزلا (وهو ما يسمى بالاسكولية كما كان لويس عوض يكتبها) بل تراث وضعه بشر لهم أهواؤهم ، وخلافاتهم أكبر من أن نتطرق اليها فى هذا السياق ٠

واتسم تراث الانسانية منذ عصر النهضة الأوربية بالتناقضات التى لم تعد محل جدال اليوم ـ وأهمها تشدق الأوربيين بالمساواة بين البشر واعلاء شأن الانسان مع فعلهم كل ما من شأنه أن يؤكد ايمانهم بالتفاوت الشديد بينهم وبين أبناء شتى قارات الأرض ! وتاريخ الاستعمار والرق يشهد على ذلك ، وتسخير الدين والفكر والآداب والفنون لتحقيق هذا الهدف المتناقض أو المزدوج ليس فى حاجة الى اعادة طرح ـ فقد تولوا هم أنفسهم فى حركات اصلاحية متوالية الكشف عن ذلك بالقول ـ سواء تولوا تغييره فى الواقع أم لا ٠

ولكن التغير الحاسم هذه الأيام فى نظرة العالم « المتقدم » الى الانسان يختلف عن نظرته اليه عبر هذا التاريخ الطويل فى أنه لم يعد يكترث كثيرا لموقع الانسان على سلم الكائنات من حيث هو صاحب الوعى وبانى الحضارة وراعى استمرارها بمستوياتها المادية والمعنوية ، أى من حيث هو كائن يتمتع بالحرية التى لا وجود لها

دون « المسئولية » ، بل أصبح يرى فى حياة الانسان على ظهر الأرض « تمثيلية » سخيفة absurd أى لا معنى لها فهى فى نظر مفكرى العالم المتقدم (شرقه وغربه) هذه الأيام تسير من عدم الى عدم ـ تنبع من لا شىء دون معنى وتصل الى لا شىء دون معنى (كما يتجلى فى شعر فيليب لازكن) •

وقد ساهمت عوامل كثيرة فى اشتداد هذا التيار الذى هبط بالانسان عدة درجات على سلم الكائنات ليس بأهمها وقوع الحربين العالميتين وماتلاهما من زعزعة الايمان بالنظام الاجتماعى وانساق القيم التى درج عليها الشباب قبل الحرب كما يذهب الكثيرون ، بل ان الحرب الأولى عادت بالكثيرين الى حظيرة الايمان ، ولكن ازدهار العلم الطبيعى بمعناه الذى ترسخ فى القرن التاسع عشر ، وخصوصا بعد الثورتين الأخيرتين ـ التكنولوجية أولا والالكترونية ثانيا أدى الى العودة بصورة العالم الى ما كانت عليه فى القرن الثامن عشر باعتبارة كيانا آليا أو آلة ضخمة تدير ذاتها (الطبيعة) أو يديرها الخالق (على أحسن الفروض) من بعيد مثل الساعة التى يصنعها الصانع ويضبطها و « يدير » لولبها أول الأمر فيصبح المحرك الأول Primum mobile ثم يتركها تدور بعيدا عنه •

ما موقع الانسان اذن في هذه الآلة ؟ ان التيـــار الرئيسى للأدب والفكر فى العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية يشـير الى أنه تراجـع عن موقع « خليفة الله فى الأرض » تراجعـا مزريـا ـ وهو الموقـع الذى أكده الرومانسيون واحتفوا به أيما احتفاء عندما أكدوا طاقات الانسان اللامحدودة ذهنيا وعاطفيا ، واحتفلوا بقدرته على اعادة تشكيل الكون الذى يعيش فيه من خـلال الطاقات التى وهبها ايـاه المولى سبحانه وتعالى ـ فهو الآن كائن عاجز ضعيف فى كل مجال ، وقدرته على تغيير أى شىء فى حياته محدودة ، بل هو ينتظر الموت دائما ـ وكل لحظة تمر تقترب به من النهاية المحتومة ٠

ولقد أشرت الى التيار الرئيسى للأدب والفكر عملا ، لأن ثمة تيارات فرعية أو ثانوية تختلف معه أو تناقضه ، ولكن التيـار الرئيسى الذى جرى الاصطلاح على تسميته بالاتجاه الحديث (أو المودرنى) يقوم على تجسيد ضعف الانسان وعجـزه ازاء كل ما يحيط به من قوى ـ سـواء كانت تلك قوى اجتماعيـة أو اقتصاديـة أو سياسية لا يستطيع تغييرهـا مهما احتـج عليهـا أو قوى قدريـة كالأمراض وكالموت آخر الأمر ـ ولذلك وجدنا أن تيـار الشعر الحديث يتسم بالحزن أولا ، مع ما فى ذلك من جهامة وقتامة وتشاؤم اشتبكت مع الأشكال الحديثة للشعر

وأصبحت هي أيضا باعتبارها اتجاها نفسيا ـ علما على « الروح الحديثة » .

ولم تكن معاداة المحدثين للرومانسية معاداة « فنية » ـ ولم يكن ما ذكره ت . س . اليوت « المعادل الموضوعي » جديدا على الاطلاق ، فهو ما قال به نقاد الأدب منذ أقدم العصور ، ولكن العداء الحقيقي كان العداء لروح التفاؤل والعواطف المشبوبة والانطلاق والخيال ومكانية الكمال وما الى ذلك مما أتى به الرومانسيون في مطلع القرن التاسع عشر في انجلترا وقبل ذلك في ألمانيا وبعده في فرنسا والعالم الحديث !

ولذلك يقول النقاد ان شاعري العصر الفكتوري الكبيرين تنيسون وبراوننج يختلفان في أن الأول أقرب الى روح الرومانسية والثاني الى المودرنية مع أنهما من نتاج عصر واحد وظروف واحدة الى آخر ذلك مما هو معروف . ولذلك أيضا نجد أن الاتجاه الحديث في شعر أواخر القرن العشرين هو التسليم بالهزيمة ـ هزيمة الانسان أمام القوى الخارجية . ولذلك تشيع في شعر شعراء « الحركة » في بريطانيا روح المفارقة والسخرية ، وكل ما يتصل بها من عجز عن تشكيل حياة الانسان رغم كل الامكانيات المادية الهائلة .

ولقد ورثنا نحن تلك الروح دون مبرر فى البداية فى شعرنا الحديث ـ ثم طرأ فى الحياة ما بررها ـ كما حاكينا العالم فى التشكيك فى موقع الانسان على سلم الوجود مع أن لدينا من التراث الانسانى (منذ الفراعنة) والدينى (منذ الأديان السماوية) ما يبرر وقوف الانسان فى وجه القوى المعادية وتصديه لها بقوة من وهبه الله طاقات المجالدة والصبر على الشدائد • وأعتقد أن هذه الملاحظة الأخيرة تفسر كثيرا من البلبلة فى أدبنا الحديث الذى أخذ من الغرب أشكالا حديثة ومعها من المشاعر ما هو غريب عنه ولكنه « موضة » فأوقع نفسه فى تناقضات ليس هذا مجال الحديث عنها •

الفصل الثالث

٣ ـ الانحلال الاجتماعي وانساق القيم

كان من نتائج احســاس الانسان بالعزلة فى كون حافل بكائنات لا تختلف كثيرا عنه فى ضعفها وعجزها عن التصدى لأقدارها (ناهيك عن التحكم فيها) أنه بدأ يفقد ثقته فى الرباط القوى الذى يشد الأرواح بعضـــــها الى بعض ــ أى ذلك الحبل المتين الذى يمتد من قلب الى قلب ومن عقل الى عقل فيجعل من الأفراد أمة ، ومن الفرد وذاته كيانا ممتدا عبر الموت الى العالم الآخر ، أو الى عالم حى وزاخر رغم وجوده فى الغيب وتواريه عن العيون الكليلة ! وأحيانا ما يدفع الاحساس بالعزلة الى اليأس ، بل قد يدفع الانسان الى الانتحـــار لأن العزلة والبشرية صفتان متنافيتان ، ولكنه يدفعه فى كل حال (وهذا هو ما يهمنا هنا) الى التركيز على ذاته لأنه لايستطيع أن يرى غيرها فى الوجود ،وقد يصبح غريب الأطوار منطويا على نفســـــه كرهبان الفكر ، أو منغمسا فى الملذات يطلبها لذاتها ، وقد

يندمج مع غيره من البشر لكى يتصور أنه غير معزول ـ وبين هذا وذاك درجات من التواصل والعزلة لانهاية لها !

وعندما صور وليام جولدنج ـ منذ سنوات عديدة ـ هذه الحال التى انتهى اليها الانسان فى بعض رواياته (ومنها ما هو معروف للقارىء العربى مثل روايه **بعل الذباب** التى تحولت الى فيلم سينمائى عجيب) هاجمه النقاد لتشاؤمه الشديد ورفضوا أن يكون فى الأطفال مثل هذا الشر ، ولذلك لم يروع الكتاب فى انجلترا فى فبراير ١٩٩٣ عندما قام طفلان كل منهما فى العاشرة باختطاف طفل فى الثانية وقتلة بصورة وحشية ! لقد روع الجمهور بطبيعة الحال واضطر رئيس الوزراء الى التعليق على الحادث تعليقا مريرا ، ولكن الكتاب التزموا الصمت أو أصدروا تعليقات موجزة مثل « الطفلان ينتميان للبشرية فلماذا نتبرأ منهما ؟ » « أو لم نعد رومانسيين حتى تهزنا هذه الحوادث العارضة ـ فالشر من سمات الأطفال أيضا » .

ونادرا ما تهتم الصحف القومية فى البلدان المتقدمة بأخبار الانحلال الاجتماعى ومظاهره ، فهذه من اختصاص صحف الجريمة والفضائح ، ويندر أن نجد من التعليقات العلمية ما يبرر ما يحدث . ففى أكتوبر ١٩٩٢ انتحر رجل بعد أن قتل زوجته بزجاجة شمبانيا فى انجلترا بسبب عواقب الانكماش الاقتصادى الذى أدى الى فقدانه وظيفته

فى احدى الشركات بعد تسلمه مكافأة نهاية خدمة قدرها نصف مليون جنيـــه ، الى جانب معاش شهرى يزيد على ٤٥ ألف جنيه استرلينى ! وقرأنا القصـــة فى صحيفة صنداى تايمز ـ ولاحظنا أن الكاتب لايعجب مطلقا لما حدث بل يقبله فى أعماقه لأنه لايرى فى الرجل الا فردا معزولا عن كل طاقة روحية ممكنة ـ فاذا اهتزت علاقته بزوجته (وهذا ما حدث) أو تزعزع وضعه الاقتصـــادى (وهذا ما حدث أيضا) لم يعد للحياة معنى وكان الانتحـــار هو الاختيار الطبيعى ! وحتى قرأت خبر هذا الحادث لم أكن قد استوعبت قصة الكاتب الانجليزى انجوس ويلســون الذى يصور فيها فردا يكتشف أنه غير مهذب أو غير محب للناس ـ ومع تعمق الكاتب فى تحليل شخصيته نكتشف أننا نشاهد نموذجا عاديا من نماذج البشر فى العالم الذى نخر فيه سوس العزلة !

ولكن الانحلال اتخذ صـــورا خطيرة دفعت كتاب الصحف القومية والدولية فى العالم الى تناوله بصــورة مباشرة ـ ولاحياء فى العلم ـ فكتب جورج ف • ويل فى صـــحيفة هيرالد تريبيون (مارس ١٩٩٣) يدافــع عن استخدام وســائل منع الحمل للمراهقــات فى بلتيمور بالولايات المتحدة وفى معـــرض دفاعه عن ذلك يـــورد الاحصائيات التالية :

« تأملوا الآن بعض الأرقام التى أوردها داجلاس

بيشاروف وكارين جادرنر في صحيفة « ذي أميريكان انتربرايز » • سوف يمارس الجنس عشرة ملايين مراهق ١٢٦ مليون مرة هذا العام ، وستكون النتيجة نحو مليون حالة حمل ، و ٤٠٦ ألف حالة اجهاض طبي و ١٣٤ ألف حالة اجهاض طبيعي ، و ٤٩٠ ألف حالة ولادة ، ٦٤ في المائة منها (أي ٣١٣ ألف) لأمهات غير متزوجات » •

ولقد أصبحت قضية الأم غير المتزوجة من القضايا الشائعة في الأدب الغربي ، ومازلت أذكر **الطاحونة** التي قرأتها منذ سنوات عديدة للكاتبة البريطانيــة مرجريت درابل وهي التي تصور فيها اكتشاف احدى الكاتبـــات للحب الحقيقي عند انجاب طفلتها « أوكتافيا » دون زواج من والد الطفلة ، وكيف تموت مشاعرها تماما عندما ترى ذلك الرجل (جورج) بعد فترة انفصال قصيرة • وأذكر أنني ناقشت المؤلفة في مؤتمر كيمبريدج عام ١٩٨٧ حول تمجيد صورة الأم غير المتزوجة فانطلقت تلقى في وجـــه الحاضرين بحجج الحركة النسائية من عدم حاجة المرأة الى الرجل وضرورة اعادة النظــر في الزواج باعتبـــاره مؤسسة اجتماعية يستغلها الرجل لحسابه ، خصوصـــا عندما يكون ضعيفا مثل جـــورج في الرواية المذكورة ، وأعقبتها كاتبة أخرى فقالت ان وظيفة الأدب اليـــوم أن يعيد بناء انساق القيم الموروثة من العصر الفيكتوري حيث كانت السيطرة الاقتصادية للرجل هي العامل الحاسم

فى العلاقة مع امرأته • ولم ننته ـ بطبيعة الحال ـ الى حل وسـط !

وأثناء قيامى فى فرنسا للعلاج هذا العام كان من الطبيعى أن تذكر لى احداهن أن لديها أبنـاء وهى غير متزوجـة ، أو أن تبدى احداهن دهشتها لمنظر الأسرة التقليدية (الأب والأم والأبناء) وهو المنظر الذى يعتبره الفرنسيون مقصورا على بلدان الجنوب أما فى أوربا فهو لم يعد يظهر الا عند شعوب البحر الأبيض مثل أهل ايطاليا وأسبانيا ـ جيرانهم الألداء ـ فهم يكنون احتقارا لتمسكهم بالروابط التى لم تعـد غير ذات موضـوع فى بلدهم « المتقدم » •

هذا التيار الانحلالى ـ وأنا أقول هذه الكلمة واعيا بمدلولاتها تماما اذ ما معنى أن تدعو فتاة الى العشاء ذات مساء ثم تصحبها لقضاء الليلة وربما لم ترها بعد ذلك مطلقا ؟ ـ ليس مقصورا على « الجرائم » الكبرى وما يدخل فى عدادها كالاغتصاب وهتك العـرض وقطع الطريق (الحرابة) والسطو المسلح وما الى ذلك ، ولكنه يتعدى ذلك الى أنماط من السلوك ربما لم تدخل فى عداد الجرائم على الاطلاق مثل انعدام الهمة أو الشهامة وهى ما يسمونها « بالسلبية » ـ واتضح أمثلتها ما قصه على صديقى ماهر البطوطى الذى يقطن فى ضاحية كوين فى نيويورك اذ قال أنه كثيرا ما يشاهد جرائم قتل ترتكب فى الطريق العام

وأحيانا أمام منزله أو على بعد خطوات منه دون أن يتدخل أحد للقبض على الجـــانى أو لانقاذ الضحية • وقد تكون « السلبية » بدافع الخوف فى معظم الأحيان ، ولكن برامج التليفزيون التى عالجت هذه الظاهرة أثبتت أن انشغال كل امرىء بنفسه هو السبب الحقيقى اذ حـــاول أحد المذيعين فتح احدى السيارات الواقفة عنـــوة — دون أن تكون سيارته — كأنه لص يحاول سرقتها ، فلم يتعرض له أحد ، بل انه عندما طلب العون من المارة وجد من يساعده دون مسألة !

العزلة اذن — ذلك الاحساس الذى ولدته التيارات الفكرية المعاصرة — ذات علاقة وطيدة بالانحلال ومحاولة وضع انساق قيم جديدة ، قيم تعترف ببنوة من ولدوا دون زواج شرعى ، وتقبل ممارسة الجنس فى كل مرحلة عمرية ولا تدين كثيرا مما نعتبره شائنا من أنمـــاط السلوك • ولكن العزلة لها عواقب أخرى سنعرض لها فى الفصـــل التـــالى •

الفصل الرابع

٤ ـ التعصب الديني والعقائدي

أصبح من المألوف أن تهتم الصحافة العالمية بالاتجاه الى معاداة الأجانب في بلد من البلدان ـ خصوصا حين يتخذ طابع العنف ـ ثم تهمله بعد قليل بل وتتجاهل ذكره كأن لم يكن ـ وعداء الأجانب ظاهرة قديمة في المجتمعات الأوروبية ، ولا تفسير لها الا ما ورثته أوروبا منذ عهود الاستعمار من احساس بتفوق أبنائها على أبناء شتى الأعراق والملل والنحل ، فالقوة العسكرية كفيلة بايجاد هذا الاحساس ، خصوصا عندما يتبلور الاحساس بالقوة بعد حرب من الحروب أو بعد الانتصار في ما كان يسمى بالحرب الباردة .

والغريب أن التراث الأدبي الذي خلفه لنا « المغتربون » ـ أي أولئك النفر من عشاق السفر والترحال الذين كتب عليهم أن يقضوا حياتهم خارج بلدانهم ـ لا يدل على ذلك الاحساس بالتفوق الا في نطاق التقدم الحضاري ـ

أى المادى المحدود ـ وفيما عدا ذلك نجـــد الاحســـاس بالاختلاف فحسب والرغبة فى المعرفة فى ظل الانسانية أو الدين • فكتابات جراهام جرين مثلا أمثلة ناصعة على سيطرة الفكر الدينى على علاقته بالبشر ، وهو فى هـذا الاطار يصوغ علاقاته بينهم ، بينما يتناول همنجواى هذه العلاقات فى اطار انسانى شفاف ويذكرنا هذا الاتجـــاه بما حدث فى أول عهود التنوير الأوربى حين اكتشف بعض رجال الكنيسة فى القرون الأولى للميلاد أن هناك « حكماء » من مصر وسيام (والصين بعد ذلك) أشرقت فى نفوسهم حقائق البعث والخلود وعرفوا معنى التقوى والصـــلاح ويعيشون حياة فاضلة دون أن تصلهم الأديان السماوية !

وعندما كتب دافيد ديتشز كتابه الشهير **الرجـــل الأبيض فى المناطق المدارية** أثار اهتمام النقاد لا بما كتبه عن الروايات الانجليزية التى تعرض لها بالتحديد ولكن باثارة الموضوع الذى لا يحب الانجليز اثارته وهو علاقة الأوربى بالآسيوى والأفريقى ـ وذلك موضوع لاتخلو منه كتابات الروائيين الرومانسيين (مثل سومرست موم) وأشعار الحركة الرومانسية برمتها ، دون أدنى استرابة فى الايحاء بالتيـــار للأوربى على غيره (باستثناء تراث الحروب الصليبية طبعا) فموضوعات الاتصال بين الشرق والغرب أو بين ما نسميه هذه الأيام بالشمال والجنوب موضوعات مثيرة للخيـــال ، وقد ولدت شخصيات كثيرة

جرى العرف على الربط بينها وبين العبقرية الرومانسية مثل « البدائي النبيل Noble Savage (أى الرجل الذى يعيش على الفطرة وهو مع ذلك أشد تمسكا بالدين والأخلاق القويمة ممن تربوا على التعليمات الدينية الرسمية ، ومثل شخصية « السمراء » Dark Lady التى تخطف قلوب الرجال وعقولهم — وهى رمز الجمال الشاعرى الغامض — ومثل « العفريت العاشق » Daemon Lover المستقى من **ألف ليلة وليلة** وما الى ذلك .

ما الذى حدث اذن حتى تتفجر الصراعات مرة ثانية بين الأجناس أو الأعراق ؟ وكيف نحتفل اليوم بانتهاء الفصل العنصرى فى جنوب أفريقيا لنرى فى أوربا أوربيين يهاجمون المستوطنين لا لذنب سوى لون جلدهم أو دينهم أو لغتهم وهلم جرا ؟ الواقع أن التقدم المادى وما أحدثته أنماط الحياة الحديثة من تغير فى مفاهيم الشباب — (ماذا يريدون من الدنيا ؟ وما عساهم فاعلون حين يبلغون أشدهم ؟) — يعتبر العامل الأول فى تحويل الدفة نحو التعصب — فالتقدم المادى يوحى بأنه امتياز موروث للشباب الأبيض ولا يقبل أن يشاركه فيه شاب أسمر أو أصفر أو أسود ! فالشاب الأوربى يقول ان ابائى بنوا هذه الحضارة لى أنا وحدى لا لكل من يساهم فى تطويرها مهما كان لون جلده ! ولن أنسى الحوار العجيب

الذى دار فى بريطانيا فى أوائل السبعينات حـول قبول وجود أجانب فى بريطانيـــا باعتبـــارهم من الانجليز ! اذ انقض أحد وزراء حزب المحافظين واسمه اينوك باول على سياسة حكومة العمال السابقة فى قبول بعض أبنـاء الكومنولث (أى مجموعة الدول التى تشارك انجلترا فى هذه المنظمة الاقتصادية وأهمها كندا واستراليا ونيوزيلند وبعض البلدان الأفريقية والآســـيوية) واتهمها بالسفة والبله ، وبدا خطـــابه المشهور قائلا : « قبل ان تقضى الآلهة على أمة تصيبها بالجنون أولا ! » ولم ينتصر باول فى هذه المعركة لأن الانجليز اكتشفوا أنهـــم يحتاجون الى الأجانب أكثر من حاجة الأجانب اليهم ، ولو حدث وتمت المقاطعة لكانت بريطانيا الأكثر خسرانا !

الجيل الجديد يريد أن يجنى ثمار ما بناه الآباء ، ولكنه يجد مزاحمة من الأجانب ، حتى وصل عدد العاطلين (ممن يتقاضون اعانة البطالة) الى نحو ثلاثة ملايين فى بريطانيا ، ويزيد الرقم قليلا عن ذلك فى فرنسا ، وقل نفس الشيء عن ايطاليـــا وألمانيـا وأمريكا وان اختلفت الأرقام !

واذا كانت هذه الأسباب الاقتصادية المباشرة تكمن خلف الظاهرة وتفسر وجودها لمعظم دارسى الاجتماع ، فان المشغولين بأمور الثقافة لايمكن أن يقبلوه وحده ـ بل هم لايقبلونه على الاطلاق ! فالشاب البروتستانتى فى أيرلندا

الشمالية أصبح يحمل السلاح اليوم ويطلقـــه فى ثقـة واطمئنان على مواطنه الأيرلندى اذا كان كاثوليكيا ، بعد أن شكل القسيس البروتستانتى ايان بيزلى هيئة الدفاع عن أيرلندا الشـــمالية لصد اعتداءات الكاثوليك وزود أعضاءها بالسلاح ! وقال أحد هؤلاء الشبان منذ عهـــد قريب « أنا لا أعرف لماذا أطلق النار ! ولكن لابد أن يكون ثم سبب قوى مادام غيرى من الكبار يطلقها ! » .

وينطبق نفس القول على مأساة تفتيت يوغوسلافيا وتأييد روسيا للصرب وخوف الغرب من خوض غمار معركة مجهولة العواقب . فى ســبيل الدفاع عن مبادىء حقوق الانسان أو المساواة العرقية أو الدينية ـ فالتطهير العرقى ، معناه طرد أو قتــل كل من لاينتمى الى جنس بعينـــه ، ولا يزعمن أحد أن الأسباب هنا اقتصادية ! بل اننا نشهد حتى الآن صراعات غريبة خارج أوربا لاتفسير لها الا ذلك الضعف البشرى العجيب الذى ولدته الحضارة الحديثة ـ الضعف النابع من العزلة والاحســاس بالوشية فى عالم لا يأبه للانسان وأقدار تطحنه ولا قبل له بمجالدتها .

وقد يسأل متسائل هنا « أفلا يمكن علاج ذلك كله عن طريق العودة الى الدين ؟ » والاجابة اليسيرة بالايجاب ليست فى الحقيقة يسيرة ، فليس من اليسير على شخص درج على اعتبار نفسه مركز الكون وحيدا لا راعى له أن يلجأ فجأة الى الله سبحانه وتعالى فتصفو روحه وتسمو !

ان قرون « هدم » الدين (التى توجها الشيوعيون بأن أطلقوا عليه اسم أفيون الشعوب) تتطلب قرونا أخرى لبناء العقيدة وغرس روح المساواة والتحاب والاحساس بين البشر !

هل يبشر الأدب بذلك ؟ لا بكل أسف · فالأدب الرفيع هذه الأيام هو ما تخلى عن « أساطير الأولين » بل وما سخر منها ـ واسمع سلمان رشدى يقول فى مقال له فى صحيفة **النيويورك تايمز** (وأعادت نشرها الهيرلد تريبيون بتاريخ ٩ فبراير ١٩٩٣) بعنوان « بعد أربع سنوات مازالوا يحاولون قتلى » :

« لست متدينا · أنا لا أركع أبدا ·· عندما يأمر أحدهم بارتكاب جريمة قتل باسم الله ، فلابد أن يسوء ظن الانسان بالله · وفيما بعد قلت فى نفسى : اذا كان الله موجودا فلا أعتقد أنه يكترث كثيرا لكتاب **الآيات الشيطانية** ، لأنه لن يكون الها حقا اذا كان كتاب من الكتب سوف يهزه على عرشه · وكذلك فاذا لم يكن موجودا فلن يكترث أيضا **بالآيات الشيطانية** » ·

هذا ما قاله سلمان رشدى بالحرف الواحد فاكتسب عطف وتأييد كتاب فرنسا اذ دعوه فى الأسبوع التالى لزيارة باريس فى حراسة مشددة ، لكى يعلن لهم (لعنة الله عليه) أنه ينتمى الى العالم المتقدم رغم أنه

هندى ـ فالالحـــاد يثبت أنه تشرب روح العصر وأدرك ضعف الانسان وعجزه ، ولذلك فهو يدعو العالم المتقدم الى محاربة ايران لالغاء الفتوى باهدار دمه ·

وقس على ذلك ثلاث روايات جديدة صـــدرت عام ١٩٩٢ ، تقول احداها واســمها **الرواية** (فى الطبعة الفرنسية) ان التعصب معناه الاحتماء بقوة القبيلة أو الأمة ونبذ ما هو غريب عنها ـ أفلا يعتبر ذلك من الوطنية التى يتفاخر بها الجميع ؟ ان معناها كراهية كل ما هو مختلف عنك ـ وهذا هو موضوع « الرواية » · وذكر أحد النقاد عندما عرض لهذا « الكتاب » فى مجلة أســـبوعية ان الاحساس بالانتماء الذى ينشده البشر لم يعد مقصورا على الأقلية ولذلك فمؤلفـة هذه الرواية تحـاول أن ترتفع بمشاعر الأقلية الى مستوى مشـــاعر الأكثرية أو الأمة الواحدة !

وليس التعصب مقصورا على ذلك ـ وهذا موضـوع الفصل التالى ·

الفصل الخامس

٥ ـ العنف والدين

عندما سمع العالم عن اعتزام الانتحـــار الجماعى لأفراد الطائفة الدينية الأمريكية التى تسمى نفسها طائفة « معبد الشعب » عام ١٩٧٨ ، حول أنظاره فى ذهول الى أمريكا الجنوبية حيث اجتمع ما يزيد على أربعمائه فرد ـ بقيادة زعيمهم شارون ـ لكى « يصعدوا معا الى السماء »، وجعل العالم يتأمل ما يحدث بين مصدق ومكذب ، اذ كان بين المنتحرين أطفال ومراهقون ونساء وشيوخ ورجال !

لقد حول العالم أنظاره ـ كما أقول ـ ولكنه لم يفعل شيئا ! فان أحد الاتجاهات المعـاصرة الكبرى فى الثقافة العالمية هى أن توفـــر أكبـر قدر من الحرية فى العقيدة والسلوك لأبناء المجتمع طالما لم تتعارض حريتهـــم مع حريات الآخرين • والواضح أن الجماعات الدينية الكثيرة المنتشرة فى أوربا وأمريكا والتى كان منشئوها الطوائف المسيحية الكثيرة (٢٥٠ فى انجلترا وحدها) لا تفتئت على

حريات الآخرين وانتحار ٤٠٠ أو ٥٠٠ لن يضر أحدا فى نظـــر الدولة ومن ثم فلا داعى للجور على حريات هؤلاء الأفراد ٠

وفى مطلع عام ١٩٩٣ اجتمع مئات من طائفة أخرى تطلق على نفسها اسم « الفرع الداودى » فى مقر لهم أجادوا تحصينه بالقرب من مدينـــة واكو فى ولاية تكســـاس بالولايات المتحدة ــ ومنهم أطفال ونساء وشيوخ ٠ واكتشف مكتب الأسـلحة النارية والكحول والتبغ (الفدرالى) أن أفراد الطائفة ارتكبوا مخالفات صريحة يعاقب عليهــــا القانون فقرروا اقتحام المقر يوم الأحد ٢٨ فبراير ١٩٩٣! ٠ ولكن الذى حدث كان كارثة اذ أطلق هؤلاء النار بضراوة على الشرطة فقتلوا أربعة وقتل منهم اثنان وبدأت فترة عصيبة من الخوف على الرهائن المحتجزين فى ذلك المكان الذى يشبه القلعة ٠ وبعد ان انتهى الكابوس (مايـــو ١٩٩٣) كان حصاد الموقعة ٩٤ قتيلا وجريحا ٠

كيف تنشأ أمثال هذه الطوائف ولماذا تتجـــه الى العنف ؟ أما المنشأ فعادة ما يستند الى نص من نصوص الكتاب المقدس (وخصوصا أسفار العهد القديم) اذ ينبرى أحد آباء الكنيسة من الصغار فيفسره تفسيرا يلائم هواه مما يغضب عنه السلطات الدينية ، وهنا قد يجد العامة فيه نموذجا للشهيد الذى يستمد علمه من علم الله ومن ثم لابد له من اختلاف مع المجتمع ، وقد يجدون فيه نموذجا

للقديس الذى صنفت نفسه وشفت روحه فهو يرى الحقيقة وغيره لايراها ومن ثم لابد من اتباعه بغية الوصـــول الى بر النجاة ٠

الزعيم اذن مهم ، أو قل الزعامة التى قد تتضمن أكثر من فرد واحد ، لأنه يستطيع أن يجمع حــــوله من الأفراد من يعتمد تصديقهم له على قوة شخصيته او قوة ايمانه لا على قوة اقناعه ٠ ولقـــد اخترت الحادثة التى أشرت اليها لأنها تمثل ما يستطيع زعيم الطائفة أن يفعله بمن حوله (اسمه دافيد كوريش) ٠ بــل ان الطائفـــة نفسها قد أسسها رجل لايجيد الانجليزية ويعتمد على اللاتينية لغة الكنيسة القديمة اذ ولد فى بلغاريا وهاجر الى أمريكا واسمه فكتور هوتف ، وكانت رســـالة هذا المؤسس بسيطة موجزة : اتبعونى يا أعضـــاء كنيســة الادفنتيست نصل معا الى فلسطين حيث يقيم الرب كنيسته الحقة وأكون أنا اليد اليمنى للمسيح ٠

وقد أدى تركيزه على تطهير كنيسة الادفنتيست من المنافقين الى غضب هذه الكنيسة عنه ، وطرده ، فأسس طائفة جديدة أطلق عليها اسم **عصا الراعى** واتخذ مقره فى واكو بولاية تكساس ٠ أما اتجاه الجماعة الى العنف فعادة ما يبدأ عند وفاة الزعيم ٠ فعندما مات فكتور هوتف عام ١٩٥٥ حاولت أرملته أن تخلفه وركزت حملتها على ما كان قد وعد به من عودة الى الحياة بعد الموت ، ولما مرت

السنوات دون أن يعود أطلقت هي نبوءة بذبح أفراد كنيسة الادفنتيسبت اليوم السابع ممن انحرفوا عن الطريق القويم وانشاء مملكة الله بين المؤمنين الصـــادقين ، ولكن هذه النبوءة لم تتحقق أيضا فعزلها الأعضـــاء وتولى الزعامة أحدهم وهو بنيامين رودن ٠

واشتعل الشجار مرة أخرى عند وفاته عام ١٩٧٨ اذ تولت الزعامة أرملته واسمها (لوا) حتى عام ١٩٨٤ ولكن ابنه جورج هب مطالبا بحقه فى الزعامة واشتبك مع أحد الأعضاء الجدد (فيرنون هاول) فى صراع تحول الى معركة بالأسلحة النارية بينهما هم وأتباعهما انتهت بانتصار هاول ٠ وكان هاول يوم الأحد ٢٨ فبراير ١٩٩٣ من بين من يطلقون مدافعهم الرشـــاشة على أفراد قوة الشرطة التى خاصرت مقر الطائفة ٠

اتجاه الطائفة الدينية الى العنف هنا مبعثه ايمان أعضائها بوجود قوة الهية توحى الى زعيمهم وتأمرهم بالموت فى سبيله لتحقيق الأهداف الدينية العليا ، وهى الأهداف التى تضمن لهم دخول الجنة ٠ وهذا الايمان الدينى قوة غير عقلانية بطبيعة الحال ٠ وهى قوة لاتناقش ولاتقبل الجدل ، فالمؤمن ــ أيا كان دينه ــ يسمع ويطيع ، وكلما أتى اليه من يطلعه على نبوءة تستند الى تفسير لآيات الكتاب المقدس آمن به واتبعه ٠

والغريب أن عداء أعضاء الطوائف الدينية المذكورة لاينصب على الملحدين مثلا ممن يعلنون الحادهم في الصحف أو ممن يعلنون الحاد الدولة كلها (كما فعلت ألبانيا حتى العـــام الماضى) أو ممن ينبذون الدين دون أن يعتنقوا الالحاد مذهبا (مثلما فعل الاتحاد السوفييتي ودول أوربا الشرقية التى كانت تعتنق الاشتراكية) ولكنهم يعتبرون أن أعداءهم الألداء هم من يقولون أنهم مؤمنـــون وفي « باطنهم » كفر ! فاذا سألت أحد أفراد طائفة من تلك الطوائف كيف تعرف ما في باطن هذا الشخص أجـــاب بأنه يتوسل بقوة الهية مستمدة من الزعيم تمكنـــه من الكشف عن بواطن المنافقين ٠

شخصية الزعيم اذن هي المفتـاح للعنف في سلوك هذه الجماعات ، اذ يستطيع أن يقنع أصحابه بأن له صلة خاصة بالملأ الأعلى ، وبأنه يسمع مالا يسمعه الآخرون ، فاذا هب من بينهم من يقول انه هو أيضا يسمع مثل هذه الأصوات وقع صدام رهيب ، لأنه لا يقبل الحسم المنطقى ولا التفاوض ولا المشاركة في الزعامة ، بل لايحســـمه الا السيف ٠

والى جانب شخصية الزعيم توجد عوامل أخرى منها حيرة الأفراد وضياعهم واحباطهم وحاجتهم الى الانتماء الى جماعة توفر لهم اليقين ، خصوصا عن طريق النبوءة التى تثبت اذا تحققت وجـــود عالم روحي ينكره المجتمع أى

انكار ! وقد يكون القتل والقتال لونا من الانتحار الذى قد تكون له أسباب مناقضة للضياع مثـل الترف والشبع والرى والحياة فى مجتمع الكثرة ! فأبناء شـمال أوربا الذين ينتحرون يهربون فى الحقيقة من عالم لا معنى له ، الى عالم مجهـول ، أما أفراد الطوائف الدينيـة الذين ينتحرون فهم يهربون من عالم لا معنى له الى عالم له معنى .

وما أيسر أن تقنع من حقق كل شيء يتمناه أن يترك هذه الدنيا ! قد نجد هذا الكلام غريبا فى مصر اذ يندر أن يحقق أحد كل ما يتمناه ، ولكن الجوع الشديد له نفس تأثير التخمة ، كلاهما يؤدى الى الثورة ولفظ الحياة ! ومن يدرس حياة دافيـد كوريش الذى تزعم الطائفـة المذكورة ثم انتحر سيدهش من الهناء الذى كان يعيش فيه والبلهنية التى كان يتقلب فى أعطافها ثم يشفق عليـه ويأسى له حين زعم انه هو المسيح قد عاد الى الأرض .

الفصـــل السادس

٦ ـ الانشغال المحموم بالمال

أصبح من الأمور المألوفة اليوم أن تطالع فى الصفحة الأولى لجريدة عالمية أخبار مجاعة من المجاعات ، وترى معها صور الموتى أو من هم على شفا الموت من الأطفال (خصوصا) ثم اذا أنت قلبت الصفحات لتطالع أخبـار المال والتجارة قرأت كم بلغت أرباح شركة صناعية (عالمية) ، ودهشت حين تعلم أن المواد الأولى التى تستخدمهـا هـذه الشركة تشتريها من بعض الدول الفقيرة ، ومن بينها تلك الدولة التى ابتليت بالمجاعة فاذا عجبت ولم تصـدق هذا الذى يحدث فأنت « طالب مسـتجد » فى علـوم السياسـة والاقتصاد ، واذا لم تعجب وقلبت الصفحة فى ضيق فأنت قد تمرست وسئمت اللعبة !

وقد كنت « مستجدا » عندما حاولت فى أواسـط السبعينيات ترجمة موضوعات اقتصادية من الانجليزية الى العربية فوجدت نفسى غارقا فى بحار أفكار جديدة على ،

ومصطلحات لا دراية لى بها . فطفقت أسأل وأسأل حتى أصبحت فى النهاية مولعا بالاقتصاد ومنكبا على الصفحات الاقتصادية فى الصحف والمجلات الأجنبية المتخصصة ، وعلى مر الزمن رأيتنى أقيم علاقات لا مفر منها بين علوم الاقتصاد والتجارة الدولية وبين حياة الانسان التى هى شغلى الشاغل فى كل ما أقرأ وأكتب – أدبا كان أم سوى ذلك ٠

وأول عـلاقة من هذه العـلاقات المحتومة هى القوة الجديدة التى اكتسبها المال منذ فجر العصر الحديث ٠ كان المال دائما ولا شك القوة المحركة للمجتمعات سـواء فى الامبراطوريات القديمة أو فى « دول الهامش » ، ولم يفقد المال سلطانه قط فى أوربا منذ العصور الوسطى وحتى العصر الحديث – مع فارق واحد وهو أن قوة المال فى الماضى كانت مصاحبة لقوة الانسان ، جسديا ومعنويا ، فالغنى لم يكن لديه مفر من اللجوء الى القوة البشرية لحماية ثروته (أو لاكتسـابها أصـلا) ولم تكن القوة البشرية تشترى بالمال (رغم أن حرفة الجندى من أقدم الحرف فى العـالم ويكفى أن اسم الجندى بالايطالية والفرنسية والانجليزية مثلا معناه الأجير) ولكنها كانت تشترى بقيم معنوية لا خلاف عليها مثل الولاء للزعيم أو لرئيس العشيرة أو القبيلة (أو الملك) أو الايمان الدينى ، أو ما فى عداد ذلك من العقائد ٠ ومن ثم لم يكن يذكر المال الا ذكرت القوة الجسدية وذكر العلم وذكر الايمـان ! وحتى العصـور الوسـطى كان « المال والبنون » مقترنين أبدا ، وكانت

« البسطة في العلم والجسم ، لازمة للمال ، ولن ينتصر فتى يستخدم جيشـــا من المأجورين ، ولنـــا في فتوحات الاسلام خير مثل لانتصار القوى المعنوية على الثراء بل والقوة المادية الجبارة لأكبر امبراطوريتين على وجه الأرض هما الفرس والروم .

ما هي القوة الجديدة اذن التي اكتسبها المال ؟ انها ، دون جدال انفصال قوة المال عن قوة الانسان ! هذا هو الفـــارق الذي لم ينتبـــه اليه كثير من المهتمين بالعلـــوم الانسانية وخصوصا في تحليل مسارات الأدب الحديث . لقد أصـــبحت للمال قوة مستقلة في ظل نظـــام الدولة الحديثة الذي يحمي كل فرد ما دام لم ينتهك القانون ، ويحمي كل بناء أو هيكل اجتماعي حتى لو كان قائما على باطل فالباطل في ميزان القيم الانسانية قد يكون مقبولا في القانون ، والعلاقة بين القانون والقيم المعنوية أو المثل العليا ما تزال مجالا للجدل والنقاش .

ونظام الدولة الحديث يتيح لأي شخص ــ أيا كانت قيمه ومبادئه ، وأيا كان موقعه من سلم الرقي الانساني ــ أن يصبح ذا مال وفير بل وأن يمكنه عن طريق هذا المال من شراء ضعاف النفوس واستغلال الآخرين وزيادة ثروته يوما بعد يوم بما يفوق طاقة أي انسان على كسب المال بالجد والعرق ، والنماذج على هذا لا حصر لها ــ نماذج

العصاميين الذين يبدأون من الصفر وينتهون بالملايين بل بالمليارات .

ووجود المال فى أيدى من لا يؤمن بالقيم الانسانية العليا خطر أى خطر على مستقبل الانسان ، ولكنه بكل أسف القاعدة التى لاراد لها ، فالمستعمر الذى كان يشحن سفنه من غرب افريقيا بأبناء ذلك الساحل من السود كى يبيعهم فى الأرض الجديدة (أمريكا) مقابل القطن والسكر والتبغ وما الى ذلك لم يكن يصغى الى أنين الأسرى الذين لم يناصبوه العداء ولم يدخلوا فى حرب معه ، بل لقد كان الجنود ينطلقون خلف أبناء القبائل فى طراد يشبه صيد الغزلان ، وكان تقييمهم يتبع نفس القواعد ـ فاذا كان الأسير ذا صحة جيدة بيع بثمن مرتفع واذا كان معتلا أو به عيوب خلقية بيع بثمن بخس !

وكذلك وجود المال فى أيدى من لا يعرفون كيف ينفقونه أو من ليسوا أهلا لانفاقه ـ فالنظم السياسية تحمى كل ذى مال مهما كان ، وتدافع عن الملكية أيما كان المالك وأيا كانت الملكية ! وحتى تلك النظم التى نادت بالتقدم وعدلت من نظم الملكية تحولت آخر الأمر الى مالكة تتصرف فى الأملاك وفقا لقواعد وقوانين أبعد ما تكون عن الحجا والرشاد ! وسرعان ما أملت هذه الأوضاع ألوانا معينة من السلوك لم تقف عند حد حماية المال أيا كان مالكه بل امتدت لتوحد ألوانا من السلوك تتميز بمحاولة اغتصاب

أموال الآخرين اما بالمخاتلة أو عنوة ـ وأصبح أحد المثل العليا فى عالم الاقتصاد الدولى هو « الحصول على شىء ما دون مقابل » وهو المثل الذى يفسر به العلماء اقبال الناس على القمار بشتى ضروبه ـ من الميسر التقليدى (على منضدة القمار) الى مراهنات سباق الخيل وسباق الكلاب بل وسباق الفئران والسيارات ! ومازلت أذكر أن الضرائب التى دفعها أصحاب محلات المراهنة على سباق الخيل للحكومة البريطانية عام ١٩٦٥ تجاوزت مبلغ ثلاث آلاف مليون جنيه ! ولم يتضمن الكتاب الذى ذكر ذلك الرقم الكلى الذى دفعه أبناء الشعب لهذه المحلات ـ والتى استحقت هذه الضريبة .

وبالتدريج اكتشف الناس أن النقود وحدها ـ دون سواها من عوامل القوة البشرية ـ تكفى لتوفير القوة اللازمة ، وان كانت محدودة فى نهاية المطاف ، للانسان ، فانكبوا عليها يكنزونها ولا ينفقونها ، ونشط العلماء يدرسون وسائل الكسب والثراء ، ونشأ علم الاقتصاد الذى أصبح مجموعة من العلوم المتشابكة المعقدة (كان الله فى عون المتخصص فيها) ، وتعرض العالم فى القرن العشرين لموجة فكرية اعتقد أنها من أخطر الموجات التى شهدتها الثقافة الانسانية ألا وهى **الولع الأعمى بالثراء** ـ وهو ولع لأنه حب مشبوب ساخن ، وهو أعمى لأنه لا يعرف حدودا ولا أسبابا ولا مبررات ، فهو المال من أجل المال أولا ، ثم المال من أجل صنم جديد عرفته أوربا وأمريكا بعد

الحرب العالمية الثانية واسمه « مستوى المعيشة » • وهذا صنم عجيب جدير بالتأمل •

سيقول لك علماء الاقتصاد ان الانسان له حاجات ولابد من اشباعها ، وسيقولون لك ان المرء لا يكفيه المأكل والملبس والمسكن بل لابد له من العلاج اذا مرض ، والنزهة اذا سئم ، والعلم اذا جهل ! وسيقولون أيضا ان كل ذلك يأتى بالمال أو بالعمل الذى يدر المال • فاذا سألتهم ما بال « مستوى المعيشة » قالوا لك هو مستوى توافر ما يفى بهذه الحاجات ـ مستوى المأكل والملبس والمسكن والعلاج والنزهة والعلم ! فاذا سألتهم بعد ذلك : وهل ثم فارق بين من يأكل طعاما مفيدا وشهيا ولكنه رخيص وبين من يحصل على نفس القيمة الغذائية والمذاقية مقابل الأموال الطائلة ـ قالوا لك لقد دخلت فى فرع معقد من فروع الاقتصاد وأحالوك الى كتاب أو كتابين !

والواقع أن الحاجة لم تعد الا عنصرا واحدا من عناصر العملية الاقتصادية ، وهى العنصر الأول ولا شك فى حالة من يتضورون جوعا فى بلدان العالم الثالث ، ولكن عناصر أخرى كثيرة بدأت تتشابك معها فى العالم المتقدم منهـا المنافسة (ذلك الدافع البشرى الجبار) ومحاولة التفوق على الأقران ، ومنها توفير القدرة على بناء القوة العسكرية التى تضمن استمرار هيمنة المهيمن وغنى الغنى ، ومنهـا الاحساس الشديد بالعزلة فى عالم لم يعد فيه للفرد مجال

للتواصل مع غيره من البشر ، أو للتجاذب النفسى والتطارح الروحى الذى يهب هذه الحياة معناها ويدفع الانسان دفعا الى الاحساس بعالم الروح — والعالم الآخر ٠

وهذا يكفى لتفسير التناقض الذى أحسه المستجد عندما قرن خبر الصفحة الأولى عن الموت جوعا ، بأخبار الشركات المتعددة الجنسيات (عبر الوطنية التى تصل أرباحها الى آلاف الملايين ! ان التضخم الذى عانت عنه بعض دول أوربا فى فترة من الفترات وجد حلا مؤقتا فى تقديم هذه الدول معونات وقروضا الى الدول النامية ، ولكن هذه المعونات قطرة من بحر (اذ ما قيمة ٣ مليار مثلا ان قورنت بانفاق عسكرى يبلغ ٩٠ مليارا ويأتى بأرباح تفوق هذه المعونة عدة مرات من نفس الدول النامية ؟) وكذلك كانت القروض سلاحا اذ حدين اذ ساعد البلدان النامية فى المدى القصير وأثقل ميزانياتها بأعباء رهيبة فى المدى البعيد ، حتى حد من طاقتها على أن تكون أسواقا حاضرة لمنتجات الدول الصناعية — وكان ذلك من عوامل الانكماش العالمى الذى بدأ من ثلاث سنوات ولم تبد بوادر انحساره الا عن بلد أو اثنين هذا العام !

أرأيت أيها القارىء ما فعلنا حين تناولنا موضوع التجارة الدولية ؟ لقد نحينا كل العوامل جانبا وركزنا على المال — ذلك الصنم الأكبر — ولم تعد عيوننا التى تغطيها الغمامة ترى قيما أخرى سواه ٠ وكذلك ستوحى

اليك الصحيفة الأجنبية التى تتحدث عن « تدهور » الاقتصاد الأمريكي ! انها تتحدث فى الحقيقة من عدم ارتفاع مستوى المعيشة فى العام الماضى فى الولايات المتحدة الا بنسبة ٥ر١٪ ـ مما جعل معظم الأمريكيين لا يشترون سيارات جديدة كبيرة ، ويؤجلون شراء الضيعة أو بناء حمام السباحة حتى العام القادم • ترى هل يعنى ذلك نفس الشيء حين نتحدث عن النمو بمعدل ٣٪ فى احدى الدول النامية ؟

ولذلك لم يفهم الانجليز غاندى حين قال : اننى لا أحتاج الى البضائع الانجليزية ! ولذلك لا يمكن للعالم أن يفهم زاهد اليوم فى ايران أو أفغانستان حين يقول اننى سأضرب عرض الحائط بملذات الحياة وأشترى الآخرة بالدنيا ! انه على استعداد للموت لأن قيمة الحياة التى سلبها الفقر جوهرها قد انخفضت حتى كادت تتلاشى • واذا كان الحوار لازما أو محتوما مع أمثال هؤلاء فينبغى أن نذكر أن عدم وجود المال فى أيديهم جعل أيديهم صفرا من الحياة نفسها ـ والموت لا شك سبيل اليقين الى الآخرة • وقس على ذلك أحوال كل من يعيش فى عالم مولع كل الولع بالمال ، بينما يجد نفسه مضطرا الى نشدان سبيل آخر يعوضه عن حرمانه • وربما كانت لدينا فى مصر نماذج كثيرة من هؤلاء •

الفصل السابع

٧ ـ رومانسية الرواية الجديدة

ليس من قبيل المبالغة أن نقول اننا توقفنا عن ترجمة الرواية العالمية الحديثة منذ مطلع السبعينيات أو قبل ذلك بقليل ، بل ان النماذج المترجمة قبل ذلك التاريخ لا تزيد على عدد أصابع اليد الواحدة ، وقد قامت أستاذة جامعية مرموقة هى الدكتورة أنجيل بطرس سمعان باجراء دراسة وافية لما ترجم عن الانجليزية الى العربية وألقت الضوء على اتجاهات المترجمين ومدى صدق ترجماتهم ، وان كانت دون أن تقصد قد بينت أن عدد ما ترجم ضئيل الى أبعد الحدود ولا يليق بأمة تفخر بعلاقاتها الوثيقة بالعالم من حولها .

ومن نتائج هذا الحصاد الهزيل أن توقف علمنا بفنون الرواية الحديثة خارج قاعات الدرس وخارج اهتمامات المتخصصين ، وواصلنا سيرنا فى الطريق الذي شقه روائيو القرن التاسع عشر وطوره روائيوا القرن العشرين قليلا ثم انطلقنا كل منا فى سبيل فأبدعنا (والحق يقال) كل

بأسلوبه الخاص ووضعنا أسس رواية عربية أصيلة ، مهما كان انتماؤها الى روايات العالم ٠

واعتقد أنه قد آن الأوان لرصد أهم اتجاهات الرواية الحديثة فى العالم من خلال الروايات التى يقرؤها الجمهور ، أى اننى أفضل المدخل الذى يعتبر أن حياة الأدب رهن بما يحيا منه فى صدور الناس لا بما تختاره المؤسسة الأدبية للتحليل والنقد فى الجامعات مثلا ٠ ولهذا المدخل مبرر قوى فى نظرى وهو أن الأدب كائن حى ـ يستخدم لغة الناس فى الوصول الى الناس والتفاعل معهم فى لحظة زمنية معينة ، فاذا نجح فى ذلك واستطاع الوصول اليهم كانت الحصيلة أقرب الى التفاعل الحى منها الى التأثير السلبى ، بمعنى أنه حين يؤثر فيهم يكون قد تأثر بهم وتغير قليلا أو كثيرا ٠ ولذلك نجد الروايات التى تخضع للمقاييس الفنية العالمية وتتضمن كل أسباب النجاح ولا تحظى مع ذلك بالاهتمام وتقبع خامدة فوق رفوف المكتبات ، لأنها لم تلق من النجاح الجماهيرى ما يحقق لها الصدق الزمانى أى الالتقاء مع اللحظة الانسانية والتاريخية التى ولدتها ٠ وقد نجد روايات لا يتحقق لها ذلك الا بعد سنوات من كتابتها أو حتى بعد وفاة مؤلفها مثل رواية **ذئب الأحراش** للكاتب الألمانى هيرمان هسه التى ترجمت الى الانجليزية فى أوائل الستينيات (مع أنها كتبت عام ١٩٢٦) وبيع منها حتى عام ١٩٦٩ ما يقرب من ربع مليون نسخة ٠

وربما كان صدقها الزماني لم يتوافر الا آنذاك ـ حين كان العالم قد بدأ يفيق من أهوال الحرب العالمية الثانية ، وحين بدأ جيل جديد ، جيل برىء طامح فى العيش الكريم والحياة الآمنة ، يناقش معنى تراث الآباء الذى أورثه سقم الحروب والنظم الاجتماعية المتناحرة ، وفرض عليه فرضا أن يشارك فى اعادة بناء ما دمر ، مضحيا بالقليل أو بالكثير فى سبيل ذلك ·

كانت تلك الرواية تمثل موقفا سابقا لزمانه وهو موقف الفـرد الذى يرفض المؤسسـة الاجتمـاعية فكرا ويحترمها بل ويحبها فى أعماقه ، فهو فريد معزول ولكنه مرتبط وموصول ، ومن ثم فالرواية تصور موقفا انسانيا أساسيا ينبع من رومانسية القرن التاسع عشر ويشير الى واقعية العشرين ـ فهو يأخذ من الرومانسية ايمانها بالذهن وقوته وعظمة الفرد ويأخذ من الواقعية احتفالها بالبنـاء الاجتماعى الراسخ الذى تصعب زحزحته · أى أن المؤلف لا يخرج لنا رواية تنتمى الى تيار بعينه وتدين له بجذور الفكر أو فنون الصنعة ، ولكنه يمزج بين التيارات اهتداء بما كان يحسه فى تلك الفترة بعيد الحرب العالمية الأولى ·

ولكن لماذا يستجيب الناس لرواية عابسة يائسة متشائمة وهم يتطلعون الى غد جميل مشرق ؟ يقول أحد النقاد أنه تأثير الكاثارسيس الذى أشار اليه أرسطو أى التطهير الذى يغسل النفوس من مشاعر بعينها حين يعيشها

المرء في الكتاب بدلا من الحياة ! ولم تكن الستينات قد طوت صفحتها حين هب من يعارض هذا التفسير قائلا ان الفن لا يقدم عالما بديلا ولكنه يغير فحسب من نظام العالم القائم ، ولم تخل المناقشة الدائرة من التعرض لمفهوم « العالم » أو « النظام العالمى » ومفهوم التاريخ ، خصوصا على ضوء كتاب جورج لوكاتش الشهير « الرواية التاريخية » .

وكأنما كان الأدب يسخر من النقاد فى السبعينات اذ أخرجت المطابع عشرات (بل مئات) الروايات الرومانسية ونعنى بها تلك الروايات التى تدور حول قدرة الفرد على التمسك بحلمه مهما كانت قسوة الحياة ، وغالب ما يتمثل ذلك الحلم في تحقيق الذات عن طريق اقامة علاقة بشرية مثمرة — أى علاقة بشرية ناجحة بغض النظر عن الزواج كمؤسسة اجتماعية • وتلفت جيل كامل من كتاب الرواية فى أوربا الى ذلك التيار الذى لم يكونوا قادرين على تصنيفه خصوصا بعد اتجاه عدد من كبار النقاد الى كتابة الرواية الساخرة — مثل مالكوم براد برى فى انجلترا — وما بدا للمؤسسة الأدبية من غلبة فنون الصنعة الجديدة على الرواية الحديثة والتى وصفها يوجين لوبنسون فى صحيفة **واشنطن بوست** بأنها « الألعاب النارية اللفظية » ، ومشاهد الأحلام المتتابعة ، والمؤثرات « السحرية الواقعية » ، والصور البلاغية التى تحيل

القـارىء الى الكاتب مبـاشرة وتتطلب منه الماما بالأطـر الثقافية الخاصة التي يرسيها في البداية ٠

ماذا حدث ؟ لقد تصـدرت رواية **جسور مقاطعـة ماديسون** قائمة المبيعات هذا العام فى أمريكا ــ وهى قصه حب محدودة النطاق بين رجل وامرأة ، كل منهما في خريف العمر ــ لمؤلف مجهول لنا واسمه روبرت جيمس والر كان يعمل أستاذا للاقتصاد في احدى الكليات حتى عام ١٩٨٥ ثم استقال ليتفرغ للكتابة ، وعندما كتب هذه الرواية ، مستوحيا علاقته بزوجته ، لم يكن يتوقع لها النجاح بل ان الناشر لم يطبع منها سوى ٢٩٠٠٠ نسخة فقط فى ابريل ١٩٩٢ ، ولكن عام ١٩٩٣ شهد الطبعة التاسعة عشرة ، وازدياد حجم المبيعات وحتى وصل الى نصف مليون ٠

ما الذى حدث ؟ هذا ما ينبغى أن نسأله مرارا وتكرارا ازاء هذه الروايـة القصيرة التى حققت أعلى مبيعـات فى أمريكا هذا العام ٠ لقد رفضها النقاد طبعا لأنها لا تستخدم فنون الصنعة الحديثة بل تتوسل بأسلوب السرد السهل اليسير ــ أسلوب القص المباشر والتقدم المتواصل فى الزمن دون التواءات أو انحناءات من أى نوع ! فقال أحدهم « انها تشبه زجاجة كوكاكولا فتحت منذ فترة فهى غير فوارة وان كانت حلوة ! » وقال الآخر انها « بلغت الكمال مثل عبرات عين الحزين ! » ولكن التحليل النقدى الوحيد الذى أعتقد

انه يفسر النجاح الجماهيرى للرواية ويبرر ما قلتــه عن التيار الجديد هو ما قاله وليام ساودر من أن الروايــة أوقظت في نفوس الأمــريكيين احساسا بالانتمــاء لعــالم الأحيــاء ·

وهو الاحساس الذى تخنقــه السيارة كل يوم ، والذهاب الى العمــل والعودة منه فى مواعيــد محــددة ، والاعتماد على الوجبات الجاهــزة ، والجرى والتلهف على لا شىء فى النهاية » ·

والذى يقصده ساودر بعالم الأحياء هو عالم الطبيعة الذى يتجلى فى اصرار المؤلف على استخدام صور الحيوانات وتأكيد الدور الذى يضطلع به المكان ، وهو الخلاء والغابة وشــــواطىء الأنهــار والبحيرات ، والتشبيهــات بالنجوم والمذنبات وأجرام السماء · ان المؤلف يدعو القارىء الى عالم تحرر من قبضة مسلسلات التليفزيون وعالم الآلات الذى يعيش فيه ، وهو يدعوه الى أن يقيم علاقة ما ـ حتى لو انتهت سريعا كما يحدث فى الرواية (بعد أربعة أيام) ـ وهو يحاول احياء تراث د · هـ · لورنس الانجليزى الذى أرسى أسس هذه الفلسفة الرومانسية فى أوائــل القرن العشرين · رغم أنه لا يحقق النجاح المنشود ·

ان استجابة الناس لهذه الفورة العارمة من المشاعر ، والتى يمكن تشبيهها بالشعر ، تعتبر مؤشرا على تحولهم

من العالم القائم الذى خلقه كتاب منتصف القرن وعلى رأسهم جورج أورويل الى عالم بسام يمكن أن يتضمن السعادة فى مكان ما ، ولكنه ، كما قلنا ، عالم مرتبط ببقعة معينة وزمن محدد ، فكأنما هو عالم من صنع الخيال ولا علاقة له بالواقع ٠

ولكن الروايات الرومانسية ليست جميعا من هذا النوع « السريع » (أو القصير أو الهزيل) الذى تشوبه العيوب ، فلقد خرجت علينا صحف لندن فى مايو ١٩٩٣ بأنباء النجاح الساحق الذى حققته رواية طويلة كتبها مؤلف هندى يدعى فكرام سيث وعنوانها **غلام مناسب** ، وقالت الصحف انها أطول رواية فى تاريخ اللغة الانجليزية اذ يبلغ عدد صفحاتها ١٣٤٩ صفحة ، وسعرها فى المكتبات فى لندن عشرون جنيها استرلينيا ، وقد قارنه النقاد بالكاتب الروسى العظيم ليوتولستوى ، وكتب عنه دانيل جونسون فى صحيفة التايمز اللندنية يقول أنه قد أصبح بالفعل أفضل كتاب جيله (وهو ما يزال فى الأربعين) وقال « ان رواية **غلام مناسب** ليست فقط من أطول الروايات المكتوبة بالانجليزية ، بل ربما ثبت أنها أخصب وأعظم عمل فنى صدر فى النصف الأخير من هذا القرن ـ وربما ثبت أيضا أنها الرواية التى ستعيد ثقة جمهور القراء الجادين فى الرواية المعاصرة » ٠ وقارنت صحيفة الجارديان البريطانية بين فكرام سيث (الهندى) وبين

جورج اليوت (الانجليزية) وجيته (الألماني) وقالت ان كتابته تفصح عن معرفة (بأسرار تتخطى حدود فن الصنعة ، بل حدود فنون الأسلوب » ٠

ورواية غلام مناسب هي حكاية ملحمية عن الهند ، تقع أحداثها بعد مرور ٤ سنوات على الاستقلال والتقسيم – أثناء القلاقل العامة والاضطرابات الاجتماعية والسياسية – وتتناول أساسا قصة حب تبدأ مع البداية وتنتهي بالنهاية ، ولكنها تتضمن في أعطافها حياة أربعة أسرات كبيرة وتزخر بالشخصيات الثانوية ، ورغم انني لم أقرأ الرواية فالفقرات التي عرضتها الصحف تدل على تمكن الكاتب من فن الصنعة وخصوصا فن التشويق في السرد ٠

وأرجو ألا يعجب القارىء أو يدهش اذا علم أن الكاتب قد نال ما يقرب من مليون دولار حتى الآن « عن » الرواية – تنقسم الى مقدم مكافأة يبلغ ٣٧٥٠٠٠ من فينكس هاوس (دار النشر البريطانية) ومقدم آخر يبلغ ٦٠٠٠٠٠ دولار من هاربر – كولنز (دار النشر الأمريكية) ٠ ولا أريد أن أختم هذه المقالة الموجزة دون التأكيد على أننا نستطيع رصد الاتجاه الرومانسي في الرواية الحديثة في معظم روايات النصف الثاني من القرن العشرين ، وليس (كما يحلو لبعض نقاد التفرقة بين الجنسين أن يزعم)

في روايات النساء فقط - من ميوريل سبارك ، الى ايريس ميردوخ ، الى أدنا اوبراين ، الى مرجريت درابل الى فيي ويلدون .... وحتى بنيلوبي لا يفلي ! بل ان شيخ الرواية « الشعبية » (الجماهيرية) الحديثة وهو سومرست موم كان رومانسيا غارقا في الرومانسية ويكفي أن الروايتين اللتين تحملان قصب السبق اليوم من تأليف رجال !

الفصل الثامن

٨ ـ المسرح الغنائى كظاهرة ما بعد الحرب :

عندما ألغيت الرقابة على « المصنفات الفنية » تماما فى بريطانيا عام ١٩٦٩ تسابق المنتجون فى تقديم مسرحيات وأفلام تتضمن مناظر « مخلة » وان لم تصل الى حد الفاضح البذىء • وقد وصف أحد النقاد ذلك بقوله ان وراء النزعة الدينية المتأصلة فى نفوس الشعب البريطانى منذ أيام ثورة أوليفر كرومويل فى القرن السابع عشر أى منذ أيام حكم البيوريتان ـ وهم من اصطلح على ترجمة أسمهم بالمتطهرين وان كان تعبير الأصولية الحديثة أقرب اليهم • ودار نقاش غريب عن مدى تدين الفرد فى انجليترا بالمقارنة بغيره من بلدان العالم ـ سواء الغربى أو الشرقى ـ وكاد المتحدثون يجمعون على أن الاحساس بالدين يختلف عن التدين ومن ثم فربما كان الانجليزى العادى أقل مراعاة لطقوس دينه ، ولكنه يفصح عن احساسه بالدين فى ايمانه الواضح بالصدق ، واحتقاره الذى يصل الى درجة الادانة

التامة للكذب ، واعتباره ان الأمانـة صفـة أساسية فى الانسان المحترم ، وكذلك اقباله على مساعدة الغير وغوث الملهوف ، ومد يد العون للصديق وللجار وهلم جرا .

وانبرى من بين الانجليز أنفسهم من قوض هذا الرأى تقويضا وشن حملة لم تخب جذوتها على مدى السبعينات على مدى النفاق الذى يتسم به الانجليز والذى يظهر فى التناقض بين القول والفعـل فى معظـم مجالات الحياة ، خصوصـا عنـد التعريض للشـعوب الأخـرى اذ يميل الانجليزى للقياس بمقياسين ، فمقياسه الذى يطبقه فى بلاده أو مع أهل جلدته يختلف عن المقياس الذى يطبقه مع الأجانب ، وربما كان ذلك راجعا الى اغتراب الانجليز عن أوطانهم ومن ثم نزوعهم الى مساعدة الأقلية المغتربة معهم ، وأما صفات الصدق والأمانة فقد أرجعها النقاد المنصفون الى مزاولة مهنة التجارة ، وهى مهنة تقتضى هذه الصفات والا عرضت التاجر للخراب والكساد .

وأيا كانت أسباب أحجام الانجليز عن استغلال رفع الرقابة فى تقديم المخزى والمرذول سنوات عديدة ، فقد استمر المسرح الانجليزى فى تقديمه الجديـد والممتع من الكوميديات غير الغنائيـة حتى أواخر السبعينات ، كأنما ليعوض النقص فى هذا اللون المسرحى الذى تتطلبه كل أمة تخرج من محنة الحرب رغم تأخر ظهوره فى بريطانيا

سنوات طويلة اذ لم يكن يعرض منه سوى مسرحية **شعر** و **المسيح** • فباستثناء العرض العارى **أوكالكتا** الذى يقتصر المخرج فيه على تعرية أجساد الممثلين ، ومسرحية **أقذر عرض فى المدينة** التى تتوسل أيضا بدرجة ما من الكشف عن الأجساد ، كان المسرح الانجليزى فى السبعينات يتطور على أيدى العمالقة توم ستوبارد (٤٠ مسرحية منوعة) وآلان ايكبورن (٥٠ كوميديا فاقعة) وغيرهما من الكتاب وان كان الآخرون قد ارتضوا التجهم سبيلا ــ سواء بسبب الأيديولوجيا مثل ادوارد بوند أو بيتر شافر وغيرهم (وآخرهم آلان ادجار) أو بسبب العصبية اليهودية (مثل أرنولد ويسكر) •

وفجأة ، ودون تمهيد ، انصرف الجمهور فى أواخر الثمانينات عن هذين اللونين من المسرح (الكوميدى والعقائدى) وأصبح يتجه اما الى الكلاسيكيات (التى يقدمها المسرح القومى بشعبه الثلاث أو فرقة شكسبير الملكية) واما الى المسرح الغنائى • وبرز على الساحة منتج شاب (فى أوائل الأربعينات) اسمه كاميرون ماكنتوش ، من شمال انجلترا لا يشرب ولا يدخن بل يهوى جمع المال، ويفرض سلطته كمنتج على كل عناصر العمل الفنى ، فبدأ فى تقديم العروض الموسيقية التى تعتمد على الغناء والرقص بصفة أساسية وتختصر مساحة الكلمات والحبكة الى دا لا يذكر بحيث استطاع تقديم مسرحياته فى خمس مدن

أوربيـة فى نفس الوقت ، ولم تمض أعوام حتى كان قد جمع ثروة تقدر بمائتى مليون جنيه تتمتع ـ كمـا يقول النقاد ـ بالسيولة ، مما يسهل له اذا أراد ان يغزو السوق الأوربيـة دون عنـاء • وانتشرت فى الأسواق موسيقى عروض **القطط** وشبح **الأوبرا وموبى ديك** التى افتتحت فى العام الماضى (١٩٩٢) **والبوساء** الى جانب العروض القديمة بطبيعة الحال ، والتى أصبحت كلاسيكية •

وفى مطلع ١٩٩٣ توقف دارسو المسرح عنـد هذه الظاهرة باعتبارهـا غير عاديـة وتدعو الى تأمل خاص • ما الذى حدث لبلد يتمتع بعراقـة تقاليده المسرحية مثل بريطانيا ولديـه فى حى واحد هو الوست أنـد أربعون مسرحا بالتمام والكمال ـ كلها يعمل وكلها كامل العدد ؟ ما الذى يجعل المنتج « يضع يده على قلبه » ـ على حد تعبير صحيفة **الهيرالد تريبيون** عند افتتاح مسرحية موسيقية جديدة ؟ وآتانا من فرنسا من حاول تفسير ذلك وان كانت مقاصده مشكوكا فيها (باعتباره فرنسيا ومن ثم منافسا للانجليز) :

« العودة الى المسرح الغنائى عودة الى المسرح القديم ، وليس فيها ما يشين الا اذا قضى المسرح الغنائى على المسرح الدرامى • ولكن ذلك لن يحدث ، لأن الانجليزى بطبعه محافظ وسوف يخجل بعد قليل من فرصة الحياة التى

يكتشفها في الموسيقى ، ويجد نفسه مضطرا الى العودة الى حزنه الفطرى الذى لا طائل من ورائه » .

وينهى الكاتب الفرنسى مقالـه بالدعوة الى الخروج من الدوائر التجريبية التى حصر الانجليز أنفسهم فيها .

وما قلنـاه عن المسرح الانجليزى ينطبق على المسرح الأمريكى بل وعلى المسرح فى بلدان أخرى كثيرة ـ متقدمة وغير متقدمة . فالواقـع أن أسباب الاقبـال على المسرح الغنائى تختلف عن أسباب الاقبـال على المسرح الدرامى (كوميديا كان أم تراجيديا) أى أنه أصبح لدينا ـ على مستوى العالم ـ جمهوران : جمهور ينشد الموسيقى والرقص أى فنون الاستعراض ، وجمهور ما زال يريد أن يسـمع ما يقال ويتابـع الأحـداث ويكفى أن الكلمة الانجليزيـة للمشاهدين أو النظارة هى audience (أى السامعين) وليس Spectators فهؤلاء هم من ينظرون دون مشاركة ايجابيـة مثل سباق الخيـل .. الخ ووجود الجمهورين أو وجود نوعين من الجمهور أمر مفهوم ، خصوصا بعد أن انفرط بالتدريج عقد التقسيمات الاجتماعية القديمة فى مجتمعات الدول الكبرى ، فذابت الطبقة الارستقراطية فى الطبقة المتوسطة ، وارتفع مستوى طبقة العمال ليقف على أعتاب المتوسطة .

وليس من قبيل المصادفة أن تصدر حكومة المحافظين

تعريفا جديـدا للطبقات فى عهد وزير التعليم سيركيث جوزيف تأخذ فيه فى اعتبارهـا المستوى الثقافى وتكاد تتخلى عن الأسس التقليدية المعروفة وهي مستوى الدخل أو قيمة الممتلكات . وقد تأملت القواعد التى بنى خبراء التعليم على أساسها تقييم « للطبقة » فوجدت أن الثقافة بالمعنى الحديث أى استجابة الانسان للطبيعة والبيئة عن طريـق الآداب والفنون تحتل المركز الثانى بعد التفوق الذهنى والتأثير فى الجماهير ! وقد يدهش زملائى الكتاب حين يعرفون ان الطبقة الأولى فى تصنيف كيث جوزيف (الذى كان وزيرا للتعليم ابان حكومة المحافظين الأولى) تتضمن أساتذة الجامعة والكتاب والاعلامين (العاملين فى مجال الانتاج) الذى يذهبون الى المسرح ! وعندما ناقشت هذه التفاصيل مع أحد الأصدقـاء فى أواسط السبعينات قال لى ان هذا مؤشر مهم وان كنت سوف تراه أيضا فى الطبقة الثانية . ترى ماذا يقول ذلك الصـديق الآن اذا سألته عن تعريفه للمسرح الذى يشارك فى تحديد الطبقة أو الفئة الاجتماعية ؟ هل سيصر على أن يكون جادا بمعنى المسرح الدرامى كما نعرفه فى التراث ؟ أم سيضم اليـه المسرح الغنائى ؟

لاشك أن هناك فئة من رواد المسرح لن يتردد أفرادها فى الذهـاب الى المسرح الغنـائى الدرامى جميعـا ــ بل ويشاهدون التجارب المسرحية الجديدة التى تجرى طول

الوقت فى شتى نوادى المسرح بل وفى المدارس والجامعات.
ولكننا مهما بحثنا فلن نجد تعريفا للمسرح يوازى التعريف
الذى نشأ فى بلادنا على مدى السنوات العشرين الأخيرة
أو قل هى ربع قرن من الزمان (منذ نكسة يونيو /
حزيران) - ألا وهو « حاجة بتضحك » - أى شيء مضحك -
وان كنت أنا أرى أن الحال أصبح مبكيا . بعد أن زخر
هذا الصيف بعروض القطاع الخاص التى قاربت العشرين
والتى لا تنتمى الى مسرح غنائى أو درامى أو أى شيء -
ولا يعرف الا الله ما هى .

ان ظاهرة المسرح الترفيهى باعتباره نوعا من
العروض المطلوبة فى فترة ما بعد الحرب (أى لتوفير
الترفيه والتسرية) ظاهرة عالمية ومفهومة ، ولكن الذى
يحدث فى « مسارحنا » لا ينتمى الى لون بعينه من هذه
الألوان ، وهو ليس مفهوما لانه ليس مسرحا بأى معنى من
المعانى ، فهو اسكتشات سخيفة وبليدة ولا انتماء لها .

الفصل التاسع

٩ ـ الحركة النسائيـة :

من المحال على المثقف « المتوسط » ـ أو قل العادى ـ الذى نال قسطا معقـولا من التعليم ولم يفقد اهتمامـه بما يدور حوله فى المجتمع والعالم ـ من المحال عليه أن يتجاهل ما يسمى بالحركة النسائية الجديدة فى بلادنا أو ما أسميته أنـا فى مقال سابق لى بتيـار نصرة المرأة Feminism • ومتابعة أجهزة الاعلام الغربية بالتحديد ، خصوصا اذا كان هذا المثقف يحبه « النظر » فى الكتب من وقت لآخر ، سوف تقنعه بأن الموضوع خطير . واذا كان ذلك المثقف امرأة (متزوجة أوغير متزوجة) اتخـذ الموضوع أبعادا شاسعة وربما غير مجرى حياتها نفسه ! فما هى تلك الحركة النسائية الجديدة ؟

الواضح انها تختلف عن حركات تحرير المرأة (Emancipation of Women) التى امتدت على مدى القرن العشرين منذ المطالبة بحق التصويت والانتخاب ،

الى المطالبـة بسائر حقوق المرأة ومسـاواتها الكاملة مع الرجل . والتى انتهت فى الستينات بما يسمى تحرير المـرأة وحسب Woman's Lib والذى كان فى جوهـره محاولة للتحرر الجنسى أى للتحرر فى العلاقة مع الرجل ــ والتمتع بمزايا الاختيار التى يتمتع بها ــ وكانت احدى قادة هذه الحملة هى الانجليزية جيرمين جرير (التى عدلت عن موقفها فيما بعد) • اذ أن جميع حركات التحرير ــ حتى قبل القرن العشرين وربمـا ابتداء بالسـيدة مارى وولستونكروفت ــ زوجـة الفيلسوف الانجليزى وليـام جودوين ــ ووالدة الروائية مارى شلى (زوجة الشاعـر المعروف) ــ كانت تركز على المكانة الاجتماعية للمرأة من حيث حقها فى العمل والمشاركة فى الحياة العامة على قدم المساواة مع الرجل دون التعرض للأسس الفلسفية التى يمكن أن تصلح موضوعا مستقلا للدراسة أو ــ كما فعل عالم النفس الأشهر كارل جوستاف يونج للأسس النفسية (والجسديـة بطبيعة الحال) للاختـلاف أو الاتفاق مع الرجل •

أما الحركة الجديدة فهى موجهة بالدرجة الأولى نحو هذه الأسس الفكرية من خلال ما كتب عن الرجل والمرأة منذ أقدم عصـــور التاريخ أى أنهـا تتخذ المادة الأولية للدراسة من الأدب المكتوب أو ما أصبح يدخل فى عداد ذلك كالتاريخ المكتوب والدراسات الانسانية التى اكتسبت

من الاحترام على مر الزمن ما يرقى بها الى مصاف ثمار القريحة البشرية الرفيعة • وكان المدخل لهذه الدراسات هو اعادة التقييم أو اعادة النظر الى كل ذلك انطلاقا من أن تراث الانسانيــة فى معظمه مكتوب من وجهــه نظــر الرجل . وأن صورة المرأة فيه بل كل ما يتعلق بالمرأة فيه متأثر بسيادة الرجل ، ولذلك فالأساس الذى تقوم عليه صورتها فى الحاضر جائر ظـالم ، بل ولا يصلح أساسـا قط ، ومن ثم بدأت الدراسات المتخصصة فى العديد من فروع المعرفــة وهى تهدف فى النهايــة الى انصاف المرأة وتبيان مدى الحيف الذى تعرضت له ، ومدى الاستغلال بل والاستعباد الذى خضعت له على مر القرون عن جانب الرجـل •

وبرزت اسماء عديدة فى هذا الميدان الجديد . الذى تفرع الى عدة ميادين • أهمها بطبيعــة الحال هو ميدان العلاقة الجنسية ، فرائــدات هذا الميدان يقلن باختصار أن الرجل خدع المرأة بما يسمى « أسطورة الجمال » حتى يستغلها جسديا بحجة وضعها على منصة تمثال لتقديسها • وبرز من بين أصوات البـاحثات فى هذا الصــدد صوت نعـومى وولف (Naomi Wolf) التى آكدت فى مقــال حديث لها :

« ان المرأة ليست أجمل ولا أقبح من الرجل ، وانه قد آن الأوان لكى يقلع المرء / المرأة عن ذكر امرأة مقرونة

بالجمال لأنه فى هذه اللحظة يكون قد تبنى وجهة نظر الرجل » ٠

وتوالت الكتب التى تتناول هذا الموضوع الشائك منها كتاب فى ثلاثة مجلدات عن التاريخ الجنسى للمرأة ، ومنها كتاب صدر فى العام الماضى تطالب فيه مؤلفته واسمها سوزان فالودى (Susan Faludi) بوضع حد نهائى لكل ما من شأنه أن يقنع المرأة أن لديها بالفطرة جاذبية أو حسنا خاصا فذلك يؤدى الى رد فعل مغبته واضحة وهو اكتفاؤها بذلك أو تصورها ان امتيازها عن الرجل فى الجمال يغنيها عن امتيازها عنه فى مجالات أخرى وقد أطلق على هذه الفكرة « نظرية رد الفعل » ٠ وانضمت الى الدراسات فى هذا الاتجاه أسماء لامعة مثل كاترين ماكينون (Catharine Mackinnon) التى تطالب بوضع قانون جديد من وجهة نظر المرأة ، وأطلق على عملها فى هذا المجال اسم « القانون النسائى » ، وأندريا دوركين Andrea Duorkin التى وضعت « نظرية الاغتصاب » ومفادها أنه لاينظر رجل الى امرأة أيا كان وأيا كانت الا واغتصبها بيده أو بعينه أو بخياله (وذلك أضعف الايمان) ٠ ومن ثم صدرت كتب منوعة تقول بصراحة ان النساء أصبحن بصفة عامة أهدافا لمطامع الرجال فى كل مكان ، وعلقت احدى الكاتبات وهى كاترين نور Katherine knorr على هذا الكتاب قائلة :

« ليس من اليسير على النساء مزاولـة العمـل مع الرجال ، وكثير من هؤلاء لا يشـعرون بالارتيـاح لمجرد وجودهن معهم ، هذا اذا لم يناصبوهن العداء ـ مع كل ما يجره ذلك من عواقب • ولكن هـذه ليست مؤامرة • فليس من اليسير على الرجال العمل مع النساء أيضـا ، وسوف تـدهش بعض اللواتى يثرن العـواصف حـول المضايقات الجنسية حين يكتشفن قلة عدد الذين يحلمون باحتضان زميلاتهم فى العمل وهم جالسون خلف مكاتبهم • فأغلب الرجال فى المكاتب مشغولون بمشاكلهم مع رؤسائهم ومصاريف المنزل الباهظـة ومتـاعب الأولاد • وهذه هى مصـادر قلق النسـاء العـاملات تقريبـا وان اختلفت الأولويات » •

ولكن هذا لا ينفى حقيقة المضايقات الجنسية التى تتعرض لها النساء فى العالم « المتقدم » ، اذ يقول احصاء حديث أجرى فى عدة مدن أسبانية ان ٤٣٪ من جميع النساء من مختلف الأعمار يتعرضن مرة على الأقل فى العام لمثل هذه المضايقات ، وقيل ان النساء فى أمريكا يتعرضن لها بنسبة أكبر ، وربما كان ذلك سبب الضجة التى أثيرت حول رفض الكونجرس تعيين القاضى الأمريكى كلارنس توماس (Clarence Thomas) قاضيا بالمحكمة العليا بسبب ما اتهمته به أنيتا هل (Anita Hill) من أنه تعرض لها أو ضايقها جنسيا وحتى الآن لا يعرف أحد طبيعة هذه المضايقة رغم

الكتب التى صدرت حول هذا الموضوع وآخرها كتاب عنوانه **أنيتا هل الحقيقة** من تأليف دافيد بروك (David Brock)

والى جانب هذه النزعة الى « تحرير المرأة جسديا بمعنى ضمان حق الاختيار والارادة لها فى علاقتها مع الرجل ، وهو ما تكفله القوانين وان تعذر تطبيقه ، تتجه الحركة النسائية أيضا الى المطالبة بعدد من الحقوق الاجتماعية التى ما تزال « معلقة » مثل المساواة فى الأجر مع الرجل اذا كانا يؤديان نفس العمل (وهذا حق لم يكفله القانون الانجليزى مثلا الا منذ سنوات معدودة) وحق المرأة فى تقاضى جزء من دخل الأسرة مقابل جهودها فى المنزل ـ لابصفة صدقة بل كحق ثابت مؤكد ـ ومثل حق المرأة فى اختيار العمل واختيار الملبس والمأكل بغض النظر عن أراء الرجل . وكان يمكن أن تتخذ المطالبة بهذه الحقوق صورة المطالبة بأى حقوق أخرى من جانب أى فئة اجتماعية كالنقابات مثلا أو الهيئات غير الحكومية وما اليها ، ولكنها تتخذ فى الحقيقة صورة « البحث العلمى » الذى يقرر مقدما النتائج التى يريد التوصل اليها ، (من ادارة فى نهاية الأمر للرجال اللاعين) فالاغتصاب جريمة تعاقب عليها جميع القوانين ، ولكن الحركة النسائية تجعل منها مسألة خلافية باثارة مدى صرامة العقوبة ـ ومدى استحقاق المغتصب (أى من ينتهك عرض امرأة ولو بلمسة من يدها ضد ارادتها) لدرجات العقوبة

المختلفة • وكذلك فالعصاب مرض نفسى معروف ، وهو يؤدى الى ظواهر سلوكية معروفة يعاقب القانون على بعضها ولا يعاقب على البعض الآخر ، ولكن الحركة النسائية تركز على العصابيين من الرجال بسبب أنماط سلوكهم المرضية . وقس على ذلك القضايا الاقتصادية التى سبقت الاشارة اليها مثل المساواة فى الأجور ، أو تقاضى جزء من دخل الأسرة مقابل الغسيل أو الطهو أو مالا أستطيع ذكره صراحة فى هذا المقال • وقد صدرت فى بريطانيا قوانين تمنع التمييز بين الجنسين لأى سبب من الأسباب ـ فمنعت مثلا نشر اعلان يقول : « مطلوب بائعون لهم خبرة » ـ وعلى المعلن أن يقول مطلوب بائعون / بائعات لهم / لهن خبرة ـ وهكذا يفعلون ، ولكن المعلن يعقد امتحانا فى آخر الأمر ويختار الرجال ـ ومن ثم يتعرض لسهام زعيمات الحركة النسائية •

وقد دافعت بعض الشركات عن ذلك قائلة انها تفضل الرجال لبعض الأعمال والنساء لأعمال أخرى ، فالصناعات الالكترونية الدقيقة فى اليابان لا يعمل فيها الا الفتيات ، دون اعتراض الرجال ، بينما لا يعمل فى قطع الأخشاب وشحنها فى كندا الا الرجال • كما دافعت بعض الشركات عن عدم المساواة فى الأجور قائلة ان تعيين المرأة يمثل مخاطرة اقتصادية فقد تترك العمل فى أى لحظة بسبب الزواج والرحيل مع زوجها ، أو بسبب الحمل وحاجتها الى

رعاية أطفالها ، فاذا قيل للشركة ان عليها تعيين عمـــال مؤقتين حتى تعود النساء ردت الشركة قائلة : وهل على حينئذ أن أفصل من عينتهم ؟ وهل هذا هو السبيل الى قهر البطالة ؟

وقد ثارت فى بريطانيا عام ١٩٩٣ مساجلات ساخنة فى أجهزة الاعلام وصفها أحد المعلقين بأنها أسوأ ما يمكن أن يحدث لقضية من القضايا ، اذا نشأ استقطاب بين مؤيدى المرأة والغالبية العظمى لهم من النساء ، ومؤيدى الرجال ومعظمهم من الرجال . أى أن المجتمع انقسم الى معسكرين كأنما قامت الحرب . ولذلك فعندما نشر نيـل ليندون (Neil Lyndon) كتابه المشهور **كفانا حروبا بين الجنسين** ـ انقضت عليه النساء بزعامة الدكتورة أنيت لوســون (Dr. Annette Lawson) وقلن له بصراحـــة ان الحرب لم تتوقف عبر تاريخ الانســانية الطويلة ، وان العداء الظاهر بين الجنسين بسبب الحركة النسائية **ظاهرى** فقط ، ففى أعماقه يكمن الحب الذى يهيىء للمجتمع الاستمرار .

ولابد أن أنهى هذا الفصل باقتطاف عبارة وردت فى مقـــال كتبته انا كويندلين (Anna Quindlen) فى صحيفة **نيويورك تايمز** فى ٢٨ ابريل ١٩٩٣ تسب فيه دافيد بروك بسبب كتابه عن أنيتا هل ، ثم تقول :

« ان أخطر تأثير لموجة الجنون التى تصاحب الحركة النسائية هو أن الأنين والشكوى من الأنوثة يوحيان بأن النساء هن فى الحقيقة ثمار هرموناتهن أى أنهن مخلوقات ضعيفة ينهشها الرجال على الدوام ومن ثم فهن فى حاجة الى الحماية ، وربما تطلبت هذه الحماية استصدار تشريعات حكومية وانفاق الكثير من الأموال » ٠

أى انها تخشى أن يرى المجتمع فى الحركة النسائية مظهرا لضعف المرأة ضعفا مرده أنوثتها ، أى أن يتصور المجتمع أن الشكوى والتباكى على ضياع الحقوق يرجع الى ضعف متأصل فى المرأة بسبب طبيعة تكوينها مما يقتضى تدخل الدولة لتلافى عواقب هذا الضعف ٠ وقد حذرت من ذلك الكاتبة التى سبق لى الاشارة اليها وهى كاترين نور فقالت فى مقال حديث تعليقا على ما سمى « بحوار الكتب » انه من الخطأ تخصيص مناهج دراسية لدراسة أوضاع المرأة ـ خصوصا على مستوى الدراسات العليا ـ فذلك يوحى بالقطع بأن المرأة كائن له من الصفات ما يجعله فى حاجة الى مساعدة المجتمع ـ والأخطر من ذلك أنه يوحى بأن النساء يغبطن الرجال على قوتهم ويتمنين فى أعماقهن لو كن رجالا ٠

واذا شئنا أن نربط هذه الحركة العالمية بالحركة النسائية فى بلادنا فلابد أن نذكر اننا من أوائل بلدان العالم

فى اقرار وجود المرأة على قدم المساواة مع الرجل فى جميع مراحل التعليم والعمل ، والنساء يعملن جنبا الى جنب مع الرجال فى الحقول وفى الأسواق (ولذلك فأنا فخور بريف مصر وأهله) ومن تختار من النساء أن تهب نفسها للأسرة وحياة المنزل أو من تضطرها الظروف الى ذلك تحيا - غالبا - حياة مكرمة ، وان كانت بعض قوانين الأحوال الشخصية مازالت فى حاجة الى تنقيح ·

الفصل العاشر

١٠ ـ المطلق والنسبى :

ربما كان أهم ملمح من ملامح عالم التسعينات هو التغير السريع الذى أتت به الثورة الالكترونية ـ أى ثورة الحاسبات الآلية كما يسمونها أحيانا أو الحواسيب (جمع حاسوب أى كمبيوتر) ٠ وقد يسأل سائل وما علاقة آلة اخترعها الانسان بتغيير حياته أو جانب منها ؟ والاجابة هى أن البرمجة أى صياغة المعلومات صياغة حاسوبية (أى فى برامج محددة) لم يقتصر تأثيرها على تيسير الحساب ـ أى حساب القيم والعمليات الرياضية خصوصا فى المجالات العلمية المتخصصة ـ ولكنه امتد ليشكل أسلوب الحساب نفسه ، اذ جعل النظم الحاسوبية أسسا للحساب تستوى فيها قيم الأرقام ومن ثم بدأ يوحى بأن التساوى العددى هو التساوى الحقيقى ، وأن الأرقام لا تكذب ٠

والتغيير الذى أحدثه الحاسوب فى ثقافة الانسان اذن منشؤه هو وضع أسس رقمية لعلوم الانسان توحى

(وليس ايحاؤها صـــائبا بالضرورة فى جميع الحالات) بســـيادة العدد • وأنا لا أتكلم هنـا عن الميكروكمبيوتر (أى الحاسوب الصغير أو الشخصى) الذى يستخدم فى المكاتب والمنازل اليوم بدلا من الآلات الكـــاتبة أو دفاتر التسجيل ويستخدم في الشركات لاجراء العمليات الحسابية وكل ما يتصل بالشئون التجارية ، فهذه آلات مفيدة تختصر الوقت الى حد بعيد ، ولكننى أتحدث عن الاعتماد على برامج الحاسوب التى أصبحت تحتل ـ بصورة متزايدة ـ مكان الكتاب فى مكاتب العلماء ، الى الحد الذى غدت تهدد فيه العلوم الانسانية باحلال العدد محل النوع والقيمة وخصوصا بسبب تجاهل عامل من العوامل فى أى عملية من عمليات هذه العلوم الحيوية •

الانسان الحديث يتغير اذن نحو الايمان بالآلة الحاسبة أو بالآلة بصفة عامة ، وهو فى سبيل ذلك يتصور أنه يتقدم نحو المطلق ، أى أنه أصبح يمتلك وســـيلة الوصول الى اليقين ، بعد ان استطاع تحويل كل شيء الى أرقام ، والأرقام فى ظنه لا تخطيء • ولذلك فقد وقف العلماء مشدوهين حين مات ثلاثة من رواد الفضاء السوفيت فى طريقهم الى الأرض والحاسوب يؤكد انهم أحياء (فى السبعينات) وكذلك عندما انفجر مكوك الفضاء الأمريكى بعد اطلاقه بدقائق وقتل رواد الفضاء السبعة (فى الثمانينات) • لقد توالت تعليقات

المعلقين آنئذ وكلها تدور حول عظمة الآلة ودقة الحساب ، وأن سبب الكارثة بشرى لأن الآلة لا تخطىء !

والتغيير الحثيث فى اتجاه الايمان بالآلة وما يصاحبها من ايمان بالعدد يتناقض مع الأساس الفكرى لأهم فرع من فروع الفلسفة الحديثة ذات الصلة الوثيقة بالرياضيات — وهو فرع فلسفة التحليل اللغوى التى أرسى أساسها فلاسفة ورياضيون مثل برتراند راســـل وهوايتهيد من ناحية ، وفتجنشتاين ورايل من ناحية أخرى . فالأساس الفكرى لهذه المدرسة ينزع نحو النسبية لأنه يستقرىء قيمة الوحدة العددية أى الرقم المفرد ، ويرفض أن يساوى بين رقمين على الاطلاق اذ يأخذ فى اعتباره أولا القيمة النوعية بكل منهما . وعندما شرعت فى دراســـة هذا الفرع فى جامعة لنـدن (عام ١٩٦٥) واستنكرت هذا التشكيك فى علم الحساب كما نعرفه ، لجأت الى صديق لى متخصص فى الرياضيات فى نفس الجامعة كأنما لأستغيث به ، وســـألته فى دهشـــة ما مجموع واحد واحد ؟ وللقارىء أن يتصور مدى دهشتى عندما نظر الى فى هـدوء وضـيق يقول « هـذا يتوقف على ... » — بدلا من أن يقول « اثنين » ! وكان بهذا يشـــير الى أن المســـألة تعتمد على نوع « الواحد » أى « الوحدة » الحسابية — فاذا أضفنا واحدا (من نوع ما) الى واحد من نوع آخر فلن تكون النتيجة اثنين ! والمفارقة هنا هى أن الدارسين يعزون التقدم فى العلوم الحاسوبية الى

هذا المذهب الفلسفى نفسه ، اذ يقولون بايجاز ان تنقية التعبير عن طريق حذف الصفات (المضافة الى الموصوف أو الكامنة فيه) يمكن أن تقترب باللغة من هذا المثل الأعلى وهو المثل الرياضى أى نظام الأرقام المصمتة (أى التى لا تحتمل أى تأويل يخرج بها عن قيمها الأساسية) ٠

ولذلك فبينما نرى أن العلوم الحاسوبية التى أدت الى ازدهار صناعات جديدة فاءت بثروات طائلة على دول كثيرة (معظمها من الدول الكبرى وان انضم اليها بعض الدول الآسيوية) تدين بمنشئها الى فرع من فروع الفلسفة الحديثة ، نجد أن تطور هذه العلوم قد أوجد لونا من الفكر المطلق يتناقض فى تطبيقاته وعواقبه مع الأسس الأولى لهذه الفلسفة التى ترتكن الى النسبية ٠ ومن ثم فان الدارس ما يفتأ يواجه صورا لهذا التناقض فى كتابات المفكرين الذين يزعمون انهم نبذوا مذاهب « المطلق » الى الأبد عندما نبذوا الدين وأسسه المطلقة بينما هم يحلون النظم العددية محل الصدارة فى تفكيرهم وتتسم مناهجهم فى البحث بايمان مطلق بقيمة العدد (والجداول) والشعور باليقين حيث تنتظم الأرقام وتنضبط الحسابات ٠

واذا كنا فى هذه العجالة قد رصدنا ظاهرة انتقلت من العلوم الطبيعية والتطبيقية الى العلوم الانسانية والنظرية فلابد أن نتحاشى نحن أيضا التعميم الذى يجعلنا نتصور

ما يسمى بالنجاح المطلق ، خصوصا عندما يقع فى مجال العلوم الطبيعية ويطلق عليه العامة صفة « العلمية » ، فربما نجح هنا منهج وفشل هناك ، ولابد أن نذكر الأسس النوعية لكل شىء فى حساباتنا حتى نحقق التوازن بين النسبى والمطلق ·

الفصل الحادى عشر

١١ ـ مناهج الفكر ومجالاته :

اذا كان التغير سمة أساسية من سمات هذا العصر ، فقد اكتسب فى التسعينات سرعة لاهثة بسبب التقدم الذى أحرزته العلوم الطبيعية والرياضية بصفة خاصة ، وبالتدريج بدأت مناهج البحث فى الانسانيات « تستعير » الكثير من هذه العلوم ، خصوصا فيما يتصل بالتصنيف والتبويب والقياس والاستقراء وما الى ذلك ، مهتدية فى كل مجال بتصور وجود « المطلق » الذى يرسى أسس اليقين ، فيهب الانسان راحة نفسية وذهنية لا غنى له عنها ٠

ولكن التطور الفكرى الذى صاحب هذه « الاستعارة » جعل الانسان يطمح فى توحيد مناهج البحث فى شتى العلوم ـ الطبيعية منها والانسانية ـ ودفعه دفعا الى محاولة اقامة كل شىء على أسس عددية لا تقبل الجدل ، فرقم ٧ أكبر من رقم ٦ ورقم ٦ أكبر من رقم ٥ ، واذا قبلنا مناقشة

هذه البديهية انهـــار نظام تفكيرنا كله · وبدأ المفكرون يختطون سبلا ومناهج جديدة (بهرتنى أول الأمر) لمعالجة العلوم الانسانية ـ استنادا الى مناهج العلوم الطبيعية ، فبدأوا باعادة تعريف بعض أسس الانسانيات ، التى كانت تحير القدماء ـ وخصوصا بعض المفاهيم المجردة المستقاة من حياة الانسان ولا وجود لها الا فى حياته مثل «أنساق القيم» . أو « معايير الجمال » ، أو معنى التناسق أو التضـــاد أو التناقض بين المجردات ووجدنا بين المحدثين من حاول اعادة تفسير الترا ثالانسانى فى اطار التعريفات الجديدة (وهى ليست صحيحة فى كل الأحوال) للألفاظ الأساسية فى كل علم من العلوم الانسانية ·

وأقام أحدهم محـورا للعلوم الانسانيـــة يتضمن الدين والفلسفة والسياسة باعتبارها مجالا مشتركا للبحث منذ أقدم العصور ، وحاول تطبيق ما يســـميه « بالمنهج العلمى » على هذا المحور فأعجزه تداخل عناصر أخرى فى كل منهـــا ، وهى عناصر تستعصى على التحليـــل المطلق (المؤدى الى اليقين) مثل الاقتصاد الذى يتداخل مع كل منها ، حتى مع الفلسفة ، والجغرافيـا التى تتداخل مع الاقتصاد ، وبعض فروع العلوم الطبيعية التى لا غنى عن الالمام بها لدارس هذه العلوم · ومن ثم جرت محاولة فى جامعة كيمبريدج على مدى خمس ســـنوات (١٩٨٣ ـ ١٩٨٧) لتحديد مناهج البحث اللازمة لكل علم من العلوم

الانسانية بحيث يمكن للباحث تقليل نسبة الخطأ الى أبعد حد ممكن ، وكانت نقطة الانطلاق هى كتــاب صــغير للفيلسوف البريطانى س ٠ أ ٠ م ٠ جود عنوانه **دليل الى الفكر الحديث** يعيد فيه تعريف العــلم الطبيعى الحديث (القائم على الملاحظة ، والتجربة ، والفرض ، والنظــرية والتنبوء) منذ نشأته الثانية فى القرن التاسع عشر (كانت الأولى فى القرن السابع عشر) والمادية كما حددها الفكر الماركسى أولا ، ثم كما أعاد تعريفها جونز وكوهن ـ وهى المعروفة بمادية الفكر الليبرالى ٠

أما اعادة التعــريف فتتعلق بمعنى « الموجــود » و « المتوهم » أى معنى كلمة « موجود » ذاتها ـ اذ بينما كان العــلم منذ قرن أو بعض قرن لايعترف الى بالموجودات الحسية أى التى تعترف بها حواسنا الخمس ، أصبح يقبل الآن وجود مالا يقع داخل نطــاق الحواس من المجردات ـ « كالقيم » على سبيل المثال ـ وغيرها من المفاهيم المجردة المستقاة من حياة الانسان الباطنة ٠

وركز دارسو كيمبريدج على أحد المفاهيم التى سبق أن تناولتها الفلسفة الانجليزية وأكثرت فيها القول وهو مفهوم « التوافق » أو ما شاعت ترجمته « بالسعادة » ـ (وخطورة الكلمة الأخيرة ايحاؤها بالهناء أى بحالة من السرور والحبور هى عارضــة عليها وليست جوهرية فيها) ٠ اذ ذهبت الفلسفة الانجليزية الحديثــة منذ

جون ستيوارت ميل وأستاذه جيريمى بنتام (فى مطلع القرن التاسع عشر) الى أن التوافق أو التناغم من الأهداف التى يسعى اليها الانسان فى كده اليومى ، وأن رجل الفكر يختار أن يختلف مع « الموجودات » (المحسوسة والمجردة) فيدخل فى صراع من عوارضه الشقاء ، وان كانت « قيمة » سعادته المحدودة اذا تحققت أكبر كثيرا من سعادة غير المفكر الذى يهنأ بالتوافق طول عمره ٠ وقال أحد دارسى مشروع كمبريدج ان التسـليم بقيمة متغيرة للتوافق يتناقض مع المنطق اذ كيف نقبل أن تكون لدينا درجات متفاوتة من قيمة مطلقة ؟

وانتهت هذه الدراسة الى أن حـل هذا التناقض الظاهرى يتمثل فى الاقرار بضرورة وجود أكثر من منهج واحد للتنـاول العلمى ـ وذلك لأن العلوم الانسـانية تتضـمن « قيما » متغيرة لا يمكن اخضـاعها للمنطق الرياضى أى تحويلهـا الى مسـائل حسـابية أو الى برامج حاسوبية (كمبيوترية) ومن ثم الاقرار بضرورة تحديد المجالات المختلفة لكل علم من العلوم وتحديد منهج لكل منها طبقا لمعطيات مجالها الخاص ، ومعنى ذلك القبول بوجود مناهج علمية مختلفة (قد يصل اختلافها الى حد التناقض) طبقا لاختلاف هذه المجالات ٠

وقد تجلى هذا الاتجاه بصورة حاسمة عندما تعرض الباحثون لما يسمى بمجالات القانون ومجـالات الفنون

اذ أثبتوا أن المناهج التقليدية المتبعة قد تتناقض مع المناهج المستعارة من العلوم الحديثة والتى توحى بالدقة لاعتمادها على الحساب وتوسلها بالأرقام (والأرقام لاتخطىء كما يقال) وشرعوا فى ضرب الأمثلة مما يسمى بأسلوب دراسة الحالة أو دراسة الحالات وهو فى حقيقته منهج تطبيقى مستعار من علم الطب وعلم القانون ويعتمد فى أساسه النظرى على أن لكل حالة منطقها ومجالها وقد تجتمع مجموعة حالات لتشكل نمطا يمكن اعتباره شريحة عمل ومع ذلك تظل الفروق قائمة بل وقد يستعصى التعميم أحيانا ٠

وهذا يعود بنا الى ما ذكرناه فى المقال السابق من علاقة النسبى بالمطلق وضرورة الوعى بما هو فردى فى علاقته بمجموعات الأفراد ، وما هو عام حين يختلف عند التطبيق من فرد الى فرد ومن حالة الى حالة ، فالسارق لفظ عام ، ولكن لكل سارق حالته ، والشاعر لفظ عام ولكن لكل قصيدة منطقها ، وكذلك المريض — أجل ! ماذا تقول فى مريضين يعانيان من نفس المرض ونفس الأعراض ويشتركان فى كل شىء ثم يشفى أحدهما ويموت الآخر ؟ هذا هو المجال الذى استعار الباحثون منه منهج دراسة الحالة ٠

ولابد عند رصد هذه الدراسة المفيدة ذات العلاقة بتغير مفهوم « المنهج العلمى » باعتباره المنهج المستقى من مناهج العلوم الطبيعية ، أن نشير الى تأكيدها على تداخل المناهج الذى يقتضيه تداخل المجالات ، وهو موضـــوع قديم سبقت دراسته باستفاضة فى اطار الدراســـات المشتركة بين التخصصات interdisciplinary وان كان يكتسب الآن أهميـــة جديدة بسبب الاحتراز الزائد فى المقاربة والخوف الشديد من التعميم المخل ، وخصوصا من الحاسوب والحاسوبية ·

الفصل الثانى عشر

١٢ ــ الابداع والنقد

الخلاف بين المبدعين والنقاد قديم قــدم الانســان نفسه ، فالصانع حين نزع فى عصر سحيق الى الابتكار والتجديد فى صنعته وشــعر بأنه ترك بصــمته على ما يصنع ، كان قد افتن فنا ، أى اختط طريقا ، فالفن هو الفنن أو الفرع الذى يهتدى اليه الصــانع بمهــارة فطرية خاصة (لأنها تولد معه ولا يهبها ايــاه الا المولى سبحانه وتعالى) اصطلحنا على تسميتها بالموهبة وبعد أن فعل ذلك وجد من يقول له فيم اختلف عمن سبقوه وفيم اتفق معهــم وأحس بالحاجة الملحــة الى من يقول له « أبدعت ! » أو « أحسنت ! » وربما أضاف « ولكن هذا الجانب من عملك يحتاج الى مزيد من الاتقان » ــ مثلا ! وربما وقف الفنان عاجزا عن ادراك أوجه الكمال والنقص

فى العمل حتى يرشده اليها مرشد ، وهو الذى اصطلحنا على تسميته بالناقد ٠

والذى أسميته بالصانع ليس بالضرورة صـــانع أشياء ملموسة ٠ فالنجار صانع بالمعنى المقصـــود ، وهو قد يغير من شكل كرسى مثلا أو منضدة ، بحيث يبـدو فيها الابتكار ، وان قد تتسم بالطرافة التى قد يستمتع بها الآخرون وقد يرفضونها ، فاذا جعل شـــكل قاعدة الكرسى أو ظهره على شكل ظهر حيوان مثلا وأضفى عليه من التفاصيل ما يوحى بذلك فسوف يقبل عليه نفـــر وينفر منه نفر ! واذا « تفنن » أى ســلك سبلا جديدة فى تصميم شـــكل الكرسى بحيث يوحى بشىء آخـــر أو بحيث يبدو أبعد مايكون عن الكرسى المألوف فربما لم يجد من الجمهـــور من يقبل عليـــه ويشتريه ٠ وقد يكون « الصانع » شاعرا تخصص فى كتابة مدائح العظماء أو احتفالات القرية أو القبيلة أو العشيرة ، فاذا صنع بشعره ما يصنعه النجار من ابتكار وتجديد فقد يجد من المستمعين من يقبـــل شـــعره ، وقد يقـــابل بالرفض والاســـتنكار ٠ وقس على ذلك كل من نطلق عليـــه لفظ الفنان فى أيامنا ـ من ممارسى الفنون العملية كالرســم

والنحت والموسيقى والرقص والتمثيل الى ممارسى الفنون اللفظية كالكتاب والشعراء ٠

الحد الفاصل بين الصنعة وفن الصنعـــة اذن هو الابتكار أى **الاتيان بالجديد الخاص بصاحبه والدال على موهبة** أى ـ اذا شئنا التفصيل ـ طاقة الذهن على التخيل والتبـــديل والتحـــويل والتفريق والتجميع والتحليـــل والتركيب الى آخر العمليات المعروفة ، وطاقة الفرد على تجسيد هذه التخيلات بالمهارة الفطرية ـ ســـواء كانت يدوية (عملية) أم لفظية (نظرية) ٠ ولكن هذا المبتكر كما ذكرت ، فى حاجة دائمة الى من يدله على هذا السبيل أو ذاك ، وهو قد يضرب فى متاهات يضل فيها ولا يهتدى اذا اعتمد على عينه وحده دون عيون الآخرين ، فالنجار الذى يصنع كرسيا معيبا رغم جاذبيـــة مظهره فى حاجة الى من يبين له العيب حتى يصلحه ، والرســـــام الذى يستهويه لون من الألوان فيسرف فى اســـتخدامه حتى يفسد الصـــورة فى حاجـــة الى من يرشـــده الى ذلك (وان كانت الصور « الفاسدة » قد أصبحت « موضة » فى احدى المدارس الفنية !) والشـــاعر الذى يخرج عن

قواعد اللغة بما يؤدى الى اساءة الفهـــم أو عن قواعد الشعر (العروض) بما يؤدى الى خلط النظم بالنثر فى حاجة الى من يوجهه الوجهة الصحيحة (وهنا أيضـــا أصبحت هذه العيوب موضة فى بلدنا) •

ولكن من ذا الذى يتولى التوجيه والذى اصطلحنا على تسميته بالناقد ؟ جرى العرف على اعتبـــار الناقد مرجعا فى فنون الصنعة لاحاطته بدقائق المجـــال الفنى الذى يتعرض له ، وهى الدقائق التى قد تبلغ حدا من الرسوخ يجعلنا نطلق عليها « المبادىء » أو « الأصول » كالايقاع فى الشعر وكالحوار فى المسرح وكالوصف فى القصة وما الى ذلك ، وعلمه به يتأتى من دراسة تاريخ كل مجال فنى وصلته بغيره من المجالات ، وهو يتوسل فى اكتســـاب هذا العـــلم بمـــا اصطلح على تسميته « الحساسية الفنية » وهى من باب الموهبة أيضا وان كانت فى رأى الكثيرين موهبـــــــة تنزع الى التدفى أكثر مما تنزع الى العطـــاء ، أى أن عملهـــا فى رأى البعض « سلبى » أكثر من أن يكون ايجابيـــا • وهذا مربط الفرس كما يقولون ، اذ أن هذه النظرة الى الناقد

(وهى نظرة قديمة بل ذات جذور ضـــاربة فى أعماق الزمن السحيق) هى التى فجـرت التيــار الجديد من الأفكار عن الابداع والنقد والذى قلب موازيننا رأســا على عقب !

بدأت الدراسات التحليلية عام ١٩٥٧ فى معهـــد ســـتانفورد بالولايات المتحدة وهو المركز العلمى الذى نادرا ما يستخدم لدراسة العلوم الانسانيـــة ، ببعض الدراسات الخاصة بالابداع عموما وهو الموضوع الذى كان علماء النفس من السباقين فى تحديد مساره (أذكر باحثا مصريا حصل على الدكتوراه فى هذا الموضوع فى لندن عام ١٩٦٠) وتوصـــل الباحثون الى بعض الأسس والمبادىء التى تساعد فى التمييز بين ثمار الموهبة وثمار الابداع وانتهوا باختصار الى أن الموهبة مهارة فطرية فى مجال من المجالات ، وأن اكتسابها ممكن وان كان عسيرا مضنيا للبعض ، مشوبا بعيوب مؤكدة ودائمة لدى البعض الآخر ، وأنها فى ذاتها محدودة القيمـــة الا اذا رعاها صاحبها وتولاها بالتنمية والتهذيب والتوجيه عن طريق العلم والمعرفة ٠

أما الابداع فهو ملكة انسانية لدى الجميع ، وهو جزء لا يتجزأ مما يسمى بالذكاء الانسانى (وان كانت اختبارات الذكاء تركز على ثلاثة مجالات فقط هى القدرة اللغوية ، والطاقة السمعية البصرية ، والقدرة الرياضية) وفى هذا الصدد نشرت عدة بحوث عن الابتكار لدى الأطفال فى مختلف الأعمار ، ثم لدى الكبار، وانتهت الى أن الابداع اذا كان يعنى الابتكار أى الاتيان بجديد فى أى علم أو فن فسوف يقف قاصرا عن الاستجابة للتحدى الحضارى دون موهبة ، ومن ثم فان تضافر الموهبة مع الابتكار هو الذى يمكن تسميته بالابداع ٠

وكأنما « جاء الفرج » للنقاد فالتقطوا هذه النتائج (التى ليست جديدة كل الجدة ولا تعتبر كاملة رغم تنقيحها ومراجعتها من عام الى آخر) وبنوا على أساسها الرأى الجديد الذى يقول ان الناقد يقوم بعمل الفنان المبدع تماما وان كان ذلك « بالعكس » أى فى الطريق المضاد ٠ فاذا ركب المبدع شيئا قام الناقد بفك هذا الشيء واستكناه طبيعته ، واذا كتب المبدع نصا قام الناقد

بتفسير هذا النص وتأويله وشرحه أى باعادته الى مواده الأولى ، ومنها الشكل أو البناء الذى انتظم هذه المواد ، ومن ثم نشأت فى الستينات عدة مدارس نقدية فلسفية بمعنى مدارس تبحث فى مذاهب النقد من الناحية النظرية واتفقت جميعها تقريبا على اعتبار العمل الفنى (أى النص الأدبى) هو نقطة انطلاق الناقد الذى يجب ألا ينظر الى سواه ، وكانت فى هذا تعتبر امتدادا لمدرسة النقد الحديث التى ارتبطت باسم الشاعر والناقد ت . س . اليوت . ولكنها سرعان ما أثبتت ـ من خلال الممارسة والتطبيقات ـ مدى اختلافها عنها ، وأهم جانب من جوانب الخلاف اصرارها على أن النص المكتوب ليس « نهائيا » أى أن الاعتماد عليه وحده قد لايكفى لأن اللغة نفسها كائن لايمكن الاعتماد عليه اعتمادا مطلقا ، والجانب المهم الآخر هو أن الابداع الفردى أو « الموهبة الفردية » (كما كان اليوت يسميها) أقل أهمية بكثير من الأنماط البنائية الكامنة فى كل عمل والتى ينبغى على الناقد أن يحاول اكتشافها . وقد « تحول » عدد من النقاد الراسخين الى الايمان بهذا المبدأ أو هذه « النظرية » فكتبوا تحليلات عديدة للأعمال

الفنية القديمة وانتهوا الى هذه الأنماط المتكررة تنهل من مصدر واحد فى نهاية الأمر ـ وأنها تتضمن من المعانى الفنيـــة ما يفوق كثيرا معانى الألفـــاظ أو المادة التى تتناولها النصوص الأدبية ٠

ولاشك أن نشاط هذه المدرســـة وما أنجزته ـ استنادا الى النماذج البنائيـة التى وضعها الباحثـــون اللغويون الأمريكيون بعيد الحرب العالميـــة الثانيـــة) استنادا الى جهـود الفرنسى سوسير والأمريكى بلومفيلد فى هذا الميدان ـ قد غيرت من عمل الناقد ومن تعريف النقد ، فأصبح الابداع سمة لاشك فيها وان كان ابداعا فكريا يحوم حول حمى الفن ويوشك أن يكون فنـــا ، خصوصا بعد أن وسع ليفى شتراوس الفرنسى من نطاق تطبيقات الأنمـــاط البنائية فجعلهـــا صـــالحة للتحليل الاجتماعى والفكرى والسياسى مما ولد ردود أفعـــــال متوقعة وطبيعية وصفت هذه المدرسة بأنها «غير انسانية» لأنهـــا تركز على الأشـــكال والأنمـاط وتتجاهل المادة الانسانية و « المضمون » ٠

وفى نفس الوقت اتجـــه فـريق آخـر بقيـــادة

جاك دريدا ، الفيلسوف الذى شغل كرسى الأســـتاذية بجامعة السوربون وتأثر بالفيلسوف الألمانى هايديجر ، الى ما يسمى بالتفكيك ـ ومعناه التزام النسبية فى تناول أى نص ، سواء كان نصا أدبيا أم تاريخيا أم قانونيا ، انطلاقا من استحالة الوصول الى اليقين • ومن ثم قام أستاذ مرموق فى جامعة ييل الأمريكية هو بول دى مان بالدعـوة لهذه المدرسة فى تنـاول النصـــوص الأدبيـة وشرحها ، ومن ثم انتشرت ســبل الابداع أمام النقـاد الذين أصبحوا يخرجون نصوصا ممتعة تنتمى شــكلا الى النقد ولكنها فى اتجاهها الى الأصالة والابتكار (وفى الموهبـــة التى تنم عن وجودها) تنتمى فى الحقيقة الى الابداع •

ويمكن أن نقول نفس الكلام عن تيار آخر هو تيار التأويل أو التفسير ، ومعناه ـ اســـتنادا الى ما قاله التفكيكيون ـ ضرورة البحث عن المعنى الحقيقى للنص أو للعمل الأدبى لأن النص ـ تعريفا ـ ناقص ، واللغة جهاز تشوبه العيوب ومن ثم فلابد من وضع النص فى اطار علاقاته المتشابكة مع العالم الخارجى • وهنا أيضا

وجدنا مباحث فلسفية تتسم بالابتكار والأصالة وتزعم الانتماء الى النقد ، بينما هى تتأرجح بين الكتابة الابداعية التقليدية والكتابة الفلسفية المحضة ٠

لقد انفتحت الأبواب أمام النقاد حتى يكتبوا « نقدا ابداعيا » ويكفى ان نقارن النقد الذى كتبه أستاذ مرموق فى الأدب الانجليزى وهو الأمريكى (جيفرى هارتمان) قبل أن يتحول الى المذاهب الحديثة ، والنقد الذى كتبه بعدها ! لقد اطلق الكاتب لقلمه ولخياله العنان فانبرى يبدع نثرا يضارع شعر الشاعر الذى تخصص فيه وهو وليم وردزورث ، وليته كان قد هجر النقد وتفرغ للكتابة الابداعية مثل دافيد ديتشيز الاسكتلندى ، أو كتب هذا وحده وذاك وحده مثل تيرى ايجلتون ومالكوم برادبرى ! وقس على ذلك أمثلة الأسماء المحترمة مثل دافيد لودج الذى تفرغ للابداع ، وجورج شتاينر الذى رفض الابداع وانحرف الى السياسة !

ومع بداية التسعينات هدأت العاصفة بعض الشىء ، بل ومنذ أواسط الثمانينات اذ بدأنا نسمع عن

ما بعد البنيوية ، وما بعد التفكيكية ‥ الخ والتفت النقاد الى ما يكتب من نقد فوجدوه مغرضا وموجها فى الغالب لاثبـــات قضية ما ، بل وتنبه منهم الكثيرون الى اللــون السياسى الذى كان يكسو بعض هذه الاتجاهات ويصبغها بأيديولوجيات لاجدال فيها ٠ بل لقد اشتكى أحدهم فى الملحق الأدبى لجريدة التايمز اللندنية ذات يوم فى أواخر السبعينـــات « هل على النقدى المتنور أن يكون بنيويا أم تفكيكيا ؟ » وضجت الساحة بالضحك لأن الايديولوجيه اليسارية التى كانت قد ارتبطت ارتباطا وثيقـا ببعض هذه المدارس نبذتها سرا وعلانية ، ولم تمض عشر سنوات حتى انهارت هذه الأيديولوجية نفسها التى كانت تمد بعض هذه المدارس بما تتصـــور أنه « الاحتـــرام » الفكرى !

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٢٦٢ / ١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 3957 — 2

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى عشرة قروش

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤ ... الهيئة المص...